جُحا قال يا أطفال

تأليف

كامل كيلاني

بعناية

بسام عبد الوهاب الجابي



دار ابن حزم

جُحا قال
يا أطفال

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

الكتب والدراسات التي تصدرها الدار
تعبر عن آراء واجتهادات أصحابها



AL-JAFFAN & AL-JABI
Printers - publishers
JAFFAN TRADERS P.O.Box: 4170 Limassol - CYPRUS
Fax: 357 - 5 - 591160 Phone: (05) 583345

دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - لبنان - ص.ب: ١٤/٦٣٦٦ - تلفون: ٧٠١٩٧٤

جُحا قال يا أطفال

تأليف

كامل كِيلاني

بعناية

بسّام عبد الوهّاب الجابي



دار ابن حزم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

ترجمة المؤلف

كامل الكِيْلانِي

(١٣١٥ ـ ١٣٧٩ هـ = ١٨٩٧ ـ ١٩٥٩ م)

ولد كامل بن كِيْلانِي إبراهيم كِيْلانِي في العشرين من أكتوبر/ تشرين الأول ١٨٩٧م. كان والده واحداً من أشهر ثلاثة مهندسين في القاهرة.

تعرف على القصص والحكايات في صغره من ثلاثة أشخاص: عمه الضرير الذي كان يعرف الكثير منها، وسائق والده، ومربيته اليونانية التي كانت تعرف الكثير من قصص اليونان وأساطيرها.

تميز كامل كِيْلانِي منذ صغره بقدرة عالية على الاستيعاب والحفظ والتذكر.

وصفه أمير الشعراء أحمد شوقي بأنه «كعقرب الثواني قصير! لكنه سريع ودقيق».

تميزت نصوصه بالعربية الفصحى البسيطة والمطواعة، ودقة الضبط والشكل، وصحة السبك والطباعة.

توفي في التاسع من أكتوبر/ تشرين الأول ١٩٥٩م.

مصادر دراسية عن كامل كِيْلانِي

- «كامل كِيْلانِي الرائد العربي لأدب الأطفال» عبد الغني بدوي، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٠م.
- «الحقائق العشر في حياة كامل كِيْلانِي» أنور الجندي، بحث ألقي في المنتدى السنوي الرابع والعشرين لكامل الكِيْلانِي، القاهرة ٥ ـ ٧ فبراير/ شباط، ١٩٨٦م.
- «كامل الكِيْلانِي في مرآة التاريخ» أنور الجندي، القاهرة، ١٩٦١م.
- «في أدب الأطفال» علي الحديدي، الطبعة الثانية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٦م.
- «منذ نعومة أظفارهم: أدب الأطفال العربي الحديث في القرن العشرين» تغريد محمد القدسي، الجمعية الكويتية لتقدم الطفولة العربية، الكويت، أكتوبر/ تشرين الأول، ١٩٩٢م.

* * *

هذه الطبعة:

اعتمدتُ كأصل للطبع على الطبعة الأولى للكتاب، وهي خَلّيةٌ من تاريخٍ للطبع، طبعت لدى دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي وشركاه؛ وأثبت كلَّ ما جاء فيها من شرح وتقريظ، وزدت النص ضبطاً، أملاً في توفير نص صحيح واضح جلي، سهل التناول.

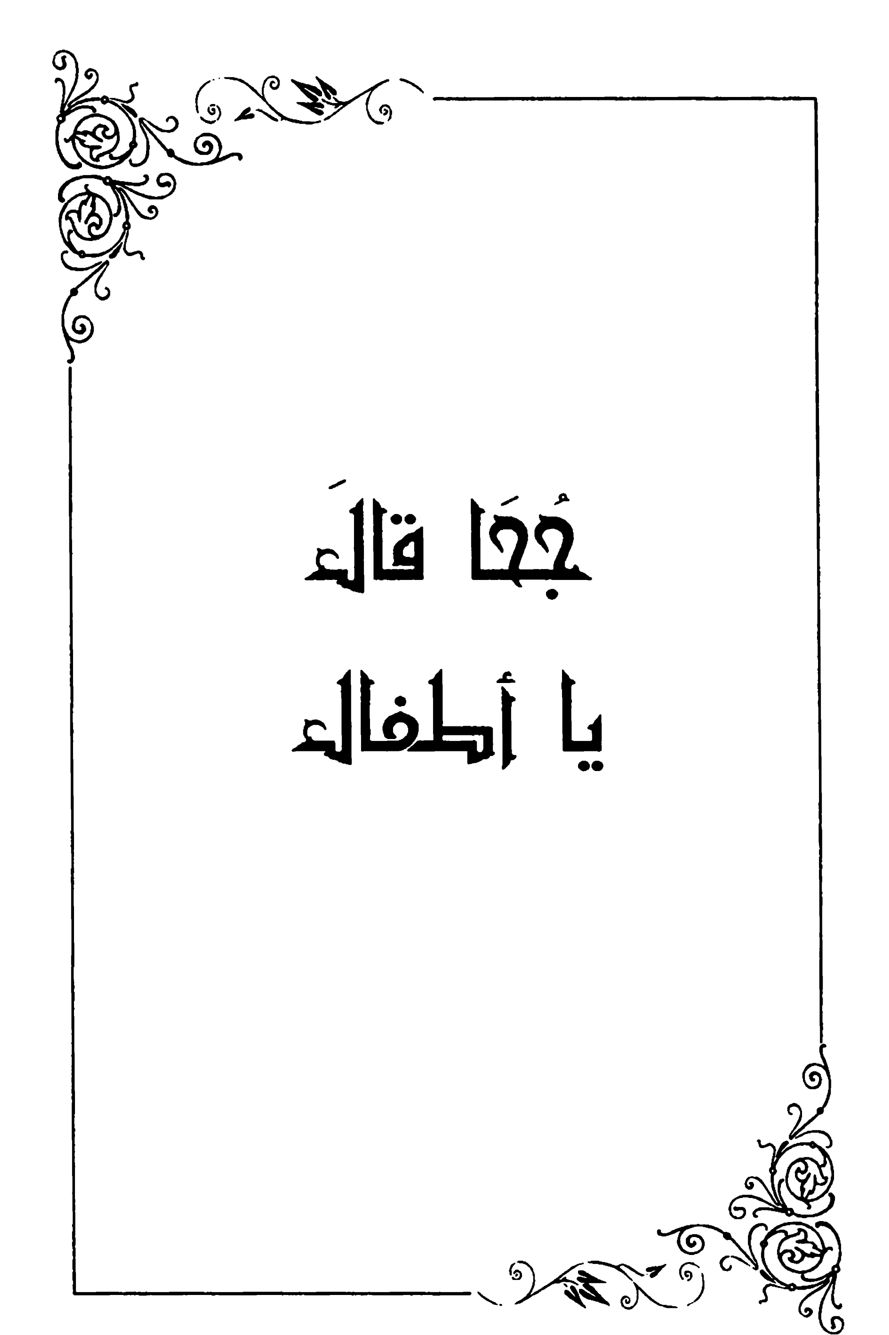
* * *

وفي الختام، أرجو الله سبحانه وتعالى أن ييسرنا للخير ويستعملنا صالحاً ويرحمنا ويغفر لنا ولوالدينا ولكل من له حق علينا، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دمشق في ١٧/ ٤/ ٢٠٠١م

بسّام عبد الوهّاب الجابي





جُحَا قالَ يا أطفال



مقدمة

أَيُّهَا الصَّبِيُّ الْعَزِيزُ!

عاشَ أَبُو الْغُصْنِ عَبْدُ اللَّهِ دُجَيْنُ بْنُ ثابِتٍ، الْمُلَقَّبُ بِـ«جُحا الْعَرَبِيِّ» فِي مَدِينَةِ الْكُوفَةِ، وَهِيَ - كَما تَعْلَمُ - مِنْ أَشْهَرِ بِلادِ الْعِرَاقِ.

وَلَمْ يَكَدْ يَمُرُّ عَلَىٰ وَفاتِهِ خَمْسَةُ قُرونٍ - أَوْ قَرِيبٌ مِنْها - أَعْنِي لَمْ يَكَدْ يَنْقَضِي عَلَى مَوْتِهِ نَحْوُ خَمْسِ مِئَةِ عامٍ، حَتَّى ظَهَرَ - فِي بِلادِ الأَناضُولِ - الأُسْتاذُ «نَصْرُ الدِّينِ» الْمَعْرُوفِ بِـ«جُحَا التُّرْكِيِّ»، كَما ظَهَرَ في أَلْمانية «تِل» الْمُلَقَّبُ بِـ«مِرْآةِ الْبُومَةِ»، وَهُوَ: الْمَعْرُوفُ بِـ«جُحَا الأَلْمانِيِّ».

وَقَلَّ أَنْ تَخْلُوَ أُمَّةٌ مِنَ الأُمَمِ، مِنْ أَمْثالِ هٰذِهِ

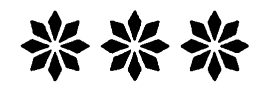
ٱلشُّخُوصِ ٱلْجُحَوِيَّةِ ٱلْفاتِنَةِ ٱلَّتِي تَتَمَثَّلُ فِيها دُعابَتُها، وَتَتَجَلَّى فُكاهَتُها.

وَسَيَمُرُّ بِكَ ـ فِي هَذا ٱلْجُزْءِ وَما يَلِيهِ مِنَ ٱلأَجْزَاءِ ـ ما يُسْلِيكَ وَيَبْهَجُ نَفْسَكَ، مِنْ فُنُونِ طَرائِفِهِم، ٱلَّتِي تَجْمَعُ بَيْنَ ٱلْجِدِّ وَٱلْفَكاهَةِ، وَتَمْزُجُ بَيْنَ ٱلْفِطْنَةِ وَٱلْبَلاهَةِ.

وَلَعَلَّكَ واجِدٌ ـ فِي أَثْناءِ دُعابَتِها ـ عِبْرَةً وَتَذْكِرَةً، وَهِدَايَةً وَتَبْصِرَةً.

أَعْنِي: رُبَّمَا وَجَدْتَ ـ فِي خِلالِ ما فيها مِنْ قَوْلٍ مُضْحِكٍ ـ نُصْحاً أَوْ تَنْبِيهاً يُذَكِّرُكَ إِذَا نَسِيتَ، وَمَوْعِظَةً تَتَّعِظُ بِها، وَتَهْتَدِي بِنُورِها. إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ.

كامل كيلاني





إِلْمَامَة

١ ـ خُرافَةُ وجَخوان

مُنْذُ خَمْسَةَ عَشَرَ قَرْناً، تَنْقُصُ بِضْعَةَ عُقُودٍ ـ أَعْنِي تَنْقُصُ عَشَراتٍ مِنَ السِّنِينَ ـ وُلِدَ خُرافَةُ: ذَلِكَ الْقاصُّ الْعَرَبِيُّ الْبارِعُ الْمُخَضْرَمُ (أَعْنِي: الَّذِي عاشَ فِي الْعَصْرَيْنِ الْجاهِلِيِّ والإِسْلامِيِّ).

وَقَدْ عاصَرَ خُرافَةُ ـ فِيمَنْ عاصَرَ ـ جَخْوانَ الصَّحَابِيَّ: جَدَّ أَبِي الغُصْنِ عَبْدِ اللَّهِ دُجَيْنِ بْنِ ثابِتٍ الْمُلَقَّبِ بِـ«جُحا»، شَيْخِ الْفُكاهَةِ الشَّرْقِيَّةِ الْباسِمَةِ السَّاحِرَةِ، وَرَمْزِ الدُّعابَةِ الْفَلْسَفِيَّةِ الْجادَّةِ السَّاخِرَةِ.

وَكَانَ خُرافَةُ ـ فِيمَا يَقُولُ عارِفُوهُ ـ طَرَّافاً وَصَّافاً (أَيْ: جَذَّابَ الْحَدِيثِ، دَقِيقَ الْوَصْفِ)، بارِعَ الْمَقالِ،

رائِعَ الْخَيالِ. يَرْوِي للنَّاسِ عَجائِبَ مِنْ أَخْبارِ الْعفارِيتِ والْجِنِّ وطَرائِفِهِمْ وَمُلَحِهِمْ، ويَقُصُّ عَلَيْهِمْ مِنْها غَرائِبَ، يَزْعُمُ لِمُعاصِرِيهِ أَنَّها حَدَثَتْ لَهُ.

٢ ـ حَديثُ خُرَافَةَ

وَقَدْ زَعَمَ خُرافَةُ، في بَعْضِ ما رَواهُ:

أَنَّهُ لَقِيَ ـ في إحْدَى رِحْلاتِهِ ـ ثَلاثَةً مِنَ الْجِنِّ، فَسَبَوْهُ (أَيْ: أَسَرُوهُ)، ثُمَّ اخْتَلَفُوا فِي أَمْرِهِ.

فَقالَ الْجِنِّيُّ الأَوَّلُ: نَعْفُو عَنْ هذا الرَّجُلِ.

وَقالَ الثَّانِي: نَقْتُلُهُ.

وقالَ الثَّالِثُ: نَسْتَعْبِدُهُ (أَيْ: نَجْعَلُهُ عَبْداً لَنا).

فَبَيْنَما هُمْ يَتَشاوَرُونَ فِي أَمْرِهِ، إِذْ وَرَدَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ، فَقالَ: اَلسَّلامُ عَلَيْكُم.

فَقالُوا: وَعَلَيْكَ اَلسَّلامُ.

قالَ: وَما أَنْتُمْ؟

قالُوا: نَفَرٌ (أَيْ: جَماعَةٌ) مِنَ ٱلْجِنِّ، أَسَرْنا هٰذا، فَنَحْنُ نَأْتَمِرُ (أَيْ: نَتَشاوَرُ) فِي أَمْرِهِ.

فقالَ: إِنْ حَدَّثْتُكُمْ حَدِيثاً عَجيباً، أَتَشْرَكُونَنِي فيهِ؟

قالُوا: نَعَمْ.

فَحَدَّثَهُمْ بِقِصَّتِهِ. فَأَعْجَبَتْهُمْ، وَقالوا لَهُ: أَنْتَ شَرِيكُنا فِي هٰذا الرَّجُلِ.

وَبَيْنا هُمْ يَتَشاوَرُونَ، وَرَدَ عَلَيْهِمْ ثَوْرٌ يُسْرِعُ فِي سَيْرِهِ، وَرَجُلٌ يَجْرِي فِي أَثَرِهِ.

فَلَمَّا رَآهُمْ، وَقَفَ وَسَلَّمَ. فَرَدُّوا عَلَيْهِ مِثْلَ رَدِّهِمْ عَلَى صاحِبِهِمْ [فَسَأَلَهُمْ، فَأَخْبَرُوهُ ٱلْخَبَرَ].

فَقالَ: إِنْ حَدَّثْتُكُمْ بِحَدِيثٍ عجيبٍ، أَتَشْرَكُونَنِي فِيهِ؟

قالُوا: نَعَمْ.

فَلَمَّا قَصَّ عَلَيْهِمْ قِصَّتَهُ، قالُوا: إِنَّ هٰذا لَعجيبٌ. فَأَنْتَ شَريكُنا.

فَبَيْنا هُمْ يَتَشاوَرُونَ، إذْ وَرَدَ عَلَيْهِمْ رَجُلٌ عَلى فَرَسٍ، وَخَلْفَهُ غُلامٌ عَلَى فَرَسٍ آخَرَ، فَسَلَّمَ كَما سَلَّمَ صاحِباهُ، فَرَدُّوا عَلَيْهِ كَرَدِّهِمْ عَلَى صاحِبَيْهِ. فَسَأَلَهُمْ، فَأَخْبَرُوهُ الْخَبَرَ.

فَقالَ: إنْ حَدَّثْتُكُمْ بِحَديثٍ عجيبٍ، أَتَشْرَكُونَنِي فِيهِ؟

فَقالُوا: نَعَمْ.

فَلَمَّا قَصَّ عَلَيْهِمْ قِصَّتَهُ، قالُوا: إنَّ هٰذا أَغْرَبُ شَيْءٍ سَمِعْناهُ! أَنْتَ شَرِيكُنا.

فاجْتَمَعَ أَمْرُهُمْ، فَأَعْتَقُوا خُرافَةَ.

٣ ـ بَعْدَ مَوْتِ خُرافَةَ

عاشَ خُرافَةُ ـ كما قُلْتُ لَكَ أَيُّهَا الصَّبِيُّ الْعزيزُ ـ في آخِرِ الْجاهِلِيَّةِ وَصَدْرِ الإسْلامِ، وَأُعْجِبَ بِأَحادِيثِهِ كُلُّ مَنْ سَمِعَها. واشْتَدَّتْ فِتْنَتُهُمْ بِها حَتَّى نَسَبُوا إِلَيْهِ كُلَّ طَريفٍ مِنَ الْحَدِيثِ تَسْتَرْعِي الأسْماعَ غَرابَتُهُ، وتَبْهَجُ

النُّفُوسَ بَراعَتُهُ. وَما زالَ ذَلِكَ دَأْبَهُمْ (أيْ: عادَتَهُمْ وَشَأْنَهُمْ) إلى الْيَوْمِ.

وَأَصْبَحَ اسْمُ خُرافَةَ مُرادِفاً لِكُلِّ حَديثٍ خَيالِيٍّ جَذّابٍ لا حَقِيقَةَ لَهُ. وَكادَ النّاسُ يَنْسَوْنَ أَنَّ خُرافَةَ عَلَمٌ عَلَى شَخْصٍ بِعَيْنِهِ، عَرَفَ النّاسَ وَعَرَفُوهُ، وَأَلِفَهُمْ وَأَلِفُوهُ، أعْنِي: أَنِسَ بِهِمْ وَأَحَبَّهُمْ، كما أَنِسُوا بِهِ وَأَحَبُّوهُ.

* * *

ثُمَّ مَضَى الْقَرْنُ الأَوَّلُ، وَمَضَى مَعَهُ خُرافَةُ وَمُعاصِرُوهُ. وَانْطَوَىٰ بِٱنْطِوائِهِ بارِعٌ ذَكِيٌّ حَدِثٌ (أَيْ: حَسَنُ الْحَدِيثِ)، لَمْ تَبْقَ لنا مِنْ رَوائِعِهِ الْمُسْتَفِيضَةِ (أي: أَحاديثِهِ الذّائِعَةِ الَّتِي يُعْجَبُ النّاسُ بِحُسْنِها) إلاّ سُطُورٌ، كَأَنَّما بَقِيَتْ عَلَى الدَّهْرِ، وَغالَبَتْ أَحْداثَهُ (أي: نُوَبَهُ وَمَصائِبَهُ)، لِتُشعِرَنا بِمِقدار ما مُنِيَ (أَيْ: ما ابْتُلِيَ) بِهِ الْقَصَصُ الْعَرَبِيُّ مِنْ فَجِيعَةٍ، بِفِقدانِ أَمْثالِ هٰذِهِ الْكُنُوزِ الْفِكْرِيَّةِ.

٤ ـ جُحَا العَرَبِيُّ

ثـمَّ جَاءَ الْقَرْنُ الثَّاني، وَمَعَهُ هَدِيَّةٌ مِنْ أَنْفَسِ الْهَدايا الفَنِّيَّةِ التي يَعْتَزُّ بها عالَمُ الْفُكاهَةِ والْمَرَحِ. فكانَ مِنْ أَبْنائِهِ شَيْخُ السُّخْرِيَةِ العَرَبِيَّةِ، وَإمامُ الفُكاهَةِ الشَّرْقِيَّةِ: أَبُو الغُصْنِ دُجَيْنُ بْنُ ثابِتٍ، الْمُلَقَّبُ بِـ جُحا. وَقَدْ رَأَى السَّيِّدُ جُحا ـ فِيمَنْ رَآهُ مِنْ أَفْذاذِ مُعاصِرِيهِ ـ أَبا مُسْلِمٍ الْخُراسانِيَّ. وكانَتْ أُمُّ جُحا تَخْدُمُ أُمَّ سُلَيمٍ بِنْتَ مِلْحانَ والِدَةَ مالِكِ بْنِ أَنَسٍ: راوِيَةِ الْحَدِيثِ الْمَعْرُوفِ.

وَقَدْ لَقِيَ السَّيِّدُ جُحا مِنَ التَّقْدِيرِ والإِعْجابِ ـ فِي الْقَرْنِ الثَّاني مِنَ الْهِجْرَةِ ـ مِثْلَ ما لَقِيَ سابقُهُ خُرافَةُ مِنْ قَبْلُ، وَلَمْ يَقِلَّ شَأْنُهُ عَنْ صاحِبِهِ: تَقْدِيراً، وَإِعْجاباً، ونَباهَةَ ذِكْرٍ، وَبُعْدَ صِيتٍ.

وأُعْجِبَ النّاسُ بِأُسْلُوبِهِ السَّهْلِ المُمْتَنِعِ فِي فَهْمِ الْحَياةِ، كما أُعْجِبُوا بِما سَمِعُوا بِهِ من طَرائِفِهِ ومُلَحِهِ.

واشْتَدَّ بِهِ إِعْجابُهُم، فَخَلَعُوا لَقَبَهُ ـ كما خَلَعُوا

لَقَبَ سابِقِهِ خُرافَةَ مِنْ قَبْلُ ـ عَلَى كُلِّ عَجيبٍ مِنَ الْقَوْلِ وَطَرِيفٍ منَ الْحَدِيثِ.

وأَصْبَحَ لِلْقَصَصِ الجُحَوِيِّ خَصائِصُهُ ومِيزاتُهُ، كما أَصْبَحَ لِلْقَصَصِ الْخُرافِيِّ ـ مِنْ قَبْلِهِ ـ بَدائِعُهُ وخَيالاتُهُ.

٥ ـ الفَنُّ الجُحَوِيُّ

واشْتَدَّ إعْجابُ بَعْضِ النَّاسِ بِهِ، فأَطْلَقَ على وَلَدِهِ لَقَبَهُ. وافْتَنَّ آخَرُونَ فأَضافُوا إِلى طَرائِفِهِ كَثِيراً مِنْ مُخْتَرَعاتِهِمْ، وفُنُون مُبْتَدَعاتِهِمْ، كما صَنَعُوا بِقِصَصِ: «أَلْفِ لَيْلَةٍ» التي أَضافُوا إِلَيْها جَمْهَرَةً مِنْ طرائِفِ خُرافَةَ وجُحا مِثْلَمَا أضافوا إليهما جَمْهَرَةً من قِصَصِها. فَتَعَذَّرَ التَّمْييزُ بَيْنَ الأَصْلِ والتَّقْلِيدِ، لا سِيَّما بَعْدَ أَنِ اخْتَلَطَتْ فُكاهاتُ جُحا بِفُكاهاتِ الشَّعْبِيِّ وأَبي الْعَيْناءِ وَأَشْعَبَ وأَبي دُلامَةَ وأَبي الْعَنْبَسِ والْغاضِرِيِّ والْجَمّازِ والْحَمْدُونِيِّ والبُهْلُولِ ومَنْ إليْهِمْ مِنْ أَعْلامِ الدُّعابَةِ (أي: الفُكاهَةِ) العَرَبِيَّةِ. وأَضافوا إليها طائِفَةً مِمّا رَواه الرُّواةُ

عَنْ بُخْلِ مادِرٍ وأبِي الأَسْوَدِ الدُّؤَلِيِّ وسَهْلِ بْنِ هارونَ وَثُمامَةَ بْنِ أَشْرَس. ثُمَّ زادَ عَلَيْها الْمُتَزَيِّدُونَ جَمْهَرَةً مِنْ فُكاهاتِ الْحَمْقَىٰ والمُغَفَّلِينَ والشَّحَّاذِينَ والطُّفَيْلِيِّينَ مِنْ أَمْثالِ هَبَنَّقَةَ وكَمِيشٍ وأَبِي حَيَّةَ النُّمَيْرِيِّ وأبِي الأَعَزِّ: عُرْوَةَ بِنْ مَرْثَدٍ وفِنْدٍ وطُفَيْلٍ وابْنِ دَرَّاجٍ وَباقِلٍ وابْنِ الحَجَّاجِ والأَحْنَفِ الْعُكْبَرِيِّ وَأَبِي الشَّمَقْمَقِ وأبِي فِرْعَوْنَ وَأَبِي دُلَفٍ الْخَزْرَجِيِّ وَأَضْرابِهِم.

وهكذا أَسْنَدَ النّاسُ إِلَىٰ جُحا كُلَّ غَرِيبٍ مِنَ ٱلْمُلَحِ وعجِيبٍ، فكادَ يُصْبِحُ ـ كما أَصْبَحَ خُرافَةُ ـ عَلَماً عَلَىٰ فَنٍّ بِعَيْنِهِ مِنْ فُنُونِ ٱلْقَوْلِ، بَعْدَ أَنْ كانَ عَلَماً عَلَىٰ شَخْصٍ بِعَيْنِهِ مِنْ أَفْذاذِ النّاسِ.

٦ ـ جُحا التُّرْكِيُّ

فلمَّا جاءَ الْقَرْنُ الثّامِنُ الهِجْرِيُّ، حَمَلَ مَعَهُ ـ فِيمَنْ حَمَلَ ـ عَلَماً آخر مِن أَعْلامِ الفُكاهَةِ الشَّرْقِيَّةِ، وإِماماً مِنْ أَئِمَّةِ الدُّعابَةِ التُّرْكِيَّةِ، هُوَ الأُسْتاذُ نَصْرُ الدِّينِ.

وقَدْ وُلِدَ فِي أَحَدِ بِلادِ الأناضُولِ، وكانَتْ سِيُورِي حِصار[١] مَسْقَطَ رَأْسِهِ. وَتُوُفِّيَ فِي آقْ شَهر، ومَعْناها: الْبَلَدُ الأَبْيَضُ. وقَدْ عاشَ فِي عَهْدِ السُّلْطَانِ أُورْخانَ[٢] وَعَمِرَ (أي: عاشَ) - فِيما يَقُولونَ - زُهاءَ سِتِّينَ عاماً.

٧ - الْبَاطِشَانِ

وَلَقِيَ نَصْرُ الدينِ - فِيمَنْ لَقِيَ - الباطِشَ السَّفَّاحَ تِيمُورْلَنْكَ[٣] كما لَقِيَ أَبُو الغُصْنِ جُحا - فِي عَصْرِهِ -

---

(١) معناها: الحصن الحصين، وهي بلدة صغيرة حصينة ضمن هضبة إلى الجنوب الغربي من أنقرة، تبعد عنها ٨٥ ميلاً، عسكر فيها تيمورلنك (أي تيمور الأعرج) فترةً من الزمن، وبالقرب منها موقع مدينة عَمُّورية.بسام.

(٢) بل في عهد السلطان بايزيد كِلْدرم (أي: البَرْق) وهو بايزيد الأول بن مراد الأول (٧٤٨ - ٨٠٥ هـ = ١٣٤٧ - ١٤٠٣ هـ)، كان سلطاناً بين عامي (٧٩١ - ٨٠٥ هـ = ١٣٨٩ - ١٤٠٢ م) أسره تِيمور في معركة أنقرة، ووضعه ضمن قفص يجرّه جوادان، واصطحبه في عودته إلى سَمَرْقند، ولكنه توفي السلطان بايزيد في مدينة آمدشهر قهراً وكمداً، ودفن في مدينة بروسة (أي: بورصة).

(٣) راجع «نوادر جُحا الكبرى» وهو من منشورات الجفان والجابي، ليماسول، قبرص، المقدمة.

الباطِشَ السَّفَّاحَ: أَبا مُسْلِمٍ الخُراسانيَّ. وهكذا عاشَ كلاهُما فِي عَصْرِ قائِدٍ سَفّاكٍ، مُتَعَطِّشٍ للدِّماءِ، باطِشٍ بِالأَقْوياءِ وَٱلضُّعَفاءِ.

٨ ـ الجُحَوانِ

وذاعَ أَمْرُ الأُسْتاذِ: نَصْرِ الدِّينِ، وراجَتْ دُعاباتُهُ، ولقِيَ مِنَ ٱلْحَظِّ مِثْلَما لَقِيَ صاحِباهُ: خُرافَةُ وجُحا مِنْ قَبْلُ.

ولَمّا كانَ لَقَبُ أُسْتاذٍ بالتُّرْكِيَّةِ هُوَ لَفْظَ خُوجَة، حَوَّلَهُ النَّقلَةُ إلىٰ جُحا، لِتَقارُبِ اللَّفْظَيْنِ وتَشابُهِ الرَّجُلَيْن، وَقَدْ كِدْنا نَقُول: لِتَطابُقِ الشَّخْصِيَّتَيْن.

وما لبِثَ الأُسْتاذُ نَصْرُ الدِّين أَنِ ٱسْتَأْثَرَ (أي: اخْتَصَّ وانْفَرَدَ) ـ بَعْدَ مَوْتِهِ ـ بِلَقَبِ جُحا. وَكادَ يَسْتَأْثِرُ بِكُلِّ طَرائِفِهِ وَمُلَحِهِ، فلا يُبْقِي لَهُ مِنْها شَيْئاً جَلَّ أَوْ حَقُرَ.

وَأَعْلَنَتْ بَعْضُ المَجَلاَّتِ مُكافأَةً لِمَنْ يَبْعَثُ إِلَيْها

بِطَرِيفَةٍ مَرْوِيَّةٍ (أَيْ: مَحْكِيَّةٍ) عن الأُسْتاذِ: نصر الدِّين، أَوْ: نصر الدِّين خُوجَةَ أو: جُحا التُّرْكِيِّ. فَراحَ النّاسُ يُنَقِّبون (أي: يَبْحَثُونَ) عن نفائسِ الْمُلَحِ ويُغِيرُونَ عليها (أَيْ: يَسْلُبُونَها) حَتَّىٰ نَسَبُوا إِلَيْهِ جَمْهَرَةً مِنَ ٱلطَّرائِفِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَغَيْرِها، فَلَمْ يَنْجُ مِنْ غاراتِهِمْ كِتابُ «كَلِيلَةَ ودِمْنة»، وَقِصَصُ «أَلْف لَيْلَةٍ»، ونوادِرُ ٱلْبُخَلاءِ وَٱلْحَمْقَىٰ وَمَنْ إِلَيْهِمْ. أَمَّا قِصَصُ أَبي ٱلْغُصْنِ دُجَيْنِ بْنِ ثابِتٍ فَلَمْ يَكَدْ يَنْجُو مِنْها شَيْءٌ. ثُمَّ تَنازَعَتِ الأُمَمُ كَثِيراً مِنَ ٱلقَصَصِ ٱلْجُحَوِيِّ: أَصْلاً وَمَزِيداً، وَافِياً وناقِصاً، أَمِيناً وَمُحَرَّفاً، مُبْدَعاً ومُشَوَّهاً، وَأَسْنَدَتْهُ كُلُّ أُمَّةٍ إِلَىٰ جُحاها.

٩ ـ مِرْآة الْبُومَةِ

وَكَما أُسْنِدَ ٱلْقَصَصُ ٱلْجُحَوِيُّ إِلىٰ جُحا ٱلتُّرْكِيِّ، مَعْزُوًّا (أَيْ: مَنْسُوباً) إِلَىٰ الأُسْتاذِ نَصْرِ ٱلدِّينِ، أُسْنِدَ مِثْلُهُ ـ أَوْ قَرِيبٌ مِنْهُ ـ إِلَىٰ جُحا ٱلأَلْمانِيِّ مُمَثَّلاً في تِل أُويْلِنْ شْپِيغل، ومَعْناهُ: مِرْآةُ ٱلْبُومَةِ.

وَإِنَّما أُطْلِقَ عَلَيْهِ لَقَبُ: مِرْآةِ ٱلْبُومَةِ، وَهُوَ لَقَبٌ بَارِعُ ٱلدَّلالَةِ، رَائِعُ الْمَغْزَى، كما تَرَى، لأَنَّ ٱلْبُومَةَ - بِرَغْمِ إِجْماعِ ٱلنَّاسِ، مَهْما تَبايَنَتْ أَجْناسُهُمْ وَٱخْتَلَفَتْ عُصُورُهُمْ عَلَىٰ ٱلنُّفُورِ مِنْها وَٱسْتِنْكارِ صُورَتِها[1] - لا تَرَىٰ في الْمِرْآةِ إِلاَّ وَجْهاً طَبِيعِيًّا، لَيْسَ بِهِ ما يُنْكَرُ، وَلا فِيهِ ما يُعابُ. وَهُوَ لَوْنٌ مُبْتَدَعٌ لِلتَّعْبِيرِ عَنِ ٱلْحِكْمَةِ الْمَأْثُورَةِ الْخالِدَةِ: «إِنَّ ٱلْمَرْءَ لا يَرَىٰ عَيْبَ نَفْسِهِ».

١٠ ـ شُخُوصٌ جُحَوِيَّةٌ

وَكَذَلِكَ أُسْنِدَتْ طَرائِفُ مِنَ ٱلْقَصَصِ ٱلْجُحَوِيِّ

---

(١) بل يصفونها بالحُسْنِ والجمال، بما في ذلك العرب! فلا يستنكرون صورتها، وإنّما يتشاءمون بها، لكونها تأوي إلى الأماكن الخَرِبَةِ، فهي دليل على الفرقة والوحشة والخراب. وقد نقل المسعودي عن الجاحظ أن البومة لا تظهر بالنهار، خوفاً من أن تُصابَ بالعين لِحُسْنِها وجمالها.
والبومة عند عامة الأوربيين رمزٌ للحكمة والعقل والعلم، وبخاصة عند الألمان، حيث هي شعار إحدى مدنهم: هانوفر، مثل شعار مدينة برلين: الدب. ولذلك يمثلون في حكاياتهم وقصصهم الرجل الحكيم والعاقل والعالم بالبومة.

إِلَىٰ جُحا ٱلْفارِسِيِّ مُمَثَّلاً في طَلْحَةَ، وَجُحا ٱلْهِنْدِي ممَثَّلاً في الشيخ تشِلِّلي، وجُحا ٱلْيُونانيِّ مُمَثَّلاً في ديُوجين ٱلْمَعْروفِ بِـ جُحا ٱلرُّومِيِّ، وجُحا ٱلأَرْمَنِيِّ مُمَثَّلاً في أَرْتِينَ، وَجُحا ٱلفَرَنْسيِّ يُمَثِّلُهُ السادَةُ دِي كراك مَرَّةً، ودِي لاپالِيس مَرَّةً ثانِيَةً، وَمِيشِيل مُوران مَرَّةً ثالِثَةً. وفِي مَرْسِلْيا نَرَى بوناس وكالينُو، وَمارِيُوس. كما نَرَى في باريسَ دُوق سانْ سِيمُون، وَما إِلَى هذِهِ ٱلشَّخْصِيَّاتِ ٱلْجُحَوِيَّةِ ٱلْفاتِنَةِ، ٱلَّتِي تُشِيعُ فِي أَرْجاءِ فَرَنْسة - وغَيْرِها - رُوحَ ٱلدُّعابَةِ ٱلْبَرِيئَةِ وَٱلتَّهَكُّمِ ٱلسَّاذَجِ. فَإِذَا ٱنْتَقَلْنا إِلَىٰ بَرِيطانِيه، رَأَيْنا، سِمْپُل سَيْمُون وجورج في إِنْكلترة، واندراوس في جَنوبها: فِي بلاد الغال (الوِيلز)، وپات في إِرْلندة، وداود في ٱسْكُتْلَنْدَةَ، وهَكَذا...

وَلَيْسَتْ شَخْصِيَّةُ دُون كِيشُوت إِلاَّ لَوْناً مُبْدَعاً لِشَخْصِيَّةِ جُحا، كما يَتَمَثَّلُها ٱلإِسْپانُ. وقَلَّما تَخْلُو أُمَّةٌ مِنْ مِثالٍ - قَريبٍ أَوْ بَعيدٍ - لِهذِه ٱلشَّخْصِيَّةِ ٱلْمَرِحَةِ ٱلطَّرِيفَةِ.

وقَدْ طَوَّعَ ٱلْقَصّاصُونَ كَثِيراً مِنَ ٱلطَّرائِفِ ٱلْجُحَوِيَّةِ، وَفَصَّلُوا منها أَنْماطاً (أَيْ: أَنْواعاً) فِكْرِيَّةً، أَلْبَسُوها عَرائِسَ أَفْكارِهِمْ وَآرائِهِمْ.

وَلَمْ تَلْبَثِ ٱلْفِكْرَةُ ٱلْجُحَوِيَّةُ - عَلَىٰ مَدَى الأَزْمانِ، وَٱخْتِلافِ الأُمَمِ ٱلَّتِي تَناقَلَتْها - أَنْ تَشَكَّلَتْ بأَلْوانِ ٱلْعُصُورِ وَٱلأُمَمِ ٱلَّتِي قَبَسَتْها، كما يَتَشَكَّلُ ٱلْمَاءُ بِلَوْنِ ٱلإناءِ ٱلَّذِي يُسْتَوْدَعُهُ.

١١ ـ آثارُ الرَّجُلَيْنِ

أَمّا بَعْدُ، فَإِنَّ ٱلْبَحْثَ لَيَطُولُ إِذَا لَمْ نُوجِزْهُ (أَيْ: نَخْتَصِرْهُ). وَيُحْسِبُنا (أَيْ: يَكْفِينا) أَنْ نقِفَ عنْدَ جُحا ٱلْعَرَبيِّ وَجُحا ٱلتُّرْكِيِّ فِي هذِهِ ٱلإِلْمامَةِ ٱلْخاطِفَةِ (أَي: السَّريعَةِ)، فَلا نَتَعَدّاهُما.

يُحْسِبُنا أَنْ نَقُولَ: إِنَّ جُحا التُّرْكِيَّ كادَ يَكُونُ نُسْخَةً مُكَرَّرَةً مِنْ جُحا ٱلْعَرَبيِّ، وَإِنْ ضَاعَ قَبْرُ الثّاني فَلَمْ يُعْرَفْ لَهُ مَكانٌ، كما ضاعَ ٱلْكَثِيرُ مِنْ آثارِهِ فَلَمْ يُهْتَدَ

إِلَيْهِ، وَبَقِيَ قبرُ ٱلأَوَّلِ مَزاراً يُحَجُّ إِلَيْهِ فِي مَدافِنِ آق شَهر.

١٢ ـ مِنْ آراءِ النَّاسِ

وَقَدْ غَلا بَعْضُ ٱلنَّاسِ، فَكادَ يُلْحِقُ ٱلْجُحَوَيْنِ كِلَيْهِما بِٱلأَوْلِياءِ وَٱلأَطْهارِ، وَٱلْقِدِّيسِينَ ٱلأَبْرارِ.

وَغَلاَ آخَرُون، فَكادُوا يَتَمَثَّلُونَ كِلَيْهِما آيَةً مِنْ آياتِ ٱلْغَفْلَةِ وَٱلْبَلَهِ، وَمَثَلاً مِنْ أَمْثِلَةِ ٱلْغَباوَةِ وَٱلْحَماقَةِ، وَتَمَثَّلَهُما آخَرُونَ نَمُوذَجاً لِلْخِداعِ وَٱلتَّلْبِيسِ (أَيْ: لِلْغِشِّ وَٱلتَّدْلِيسِ).

١٣ ـ تشابُهُ الْجُحَوَيْنِ

وَمَهْما يَكُنْ مِنْ أَمْرٍ، فَقَدْ كَانَ كِلا ٱلْجُحَوَيْنِ ذَكِيًّا بارِعاً رَاجِحَ ٱلْعَقْلِ مُحَدَّثاً (أَيْ: مُلْهَماً صادِقَ ٱلْفِراسَةِ)، يَتَغَابَى فِي غَيْرِ غَباوَةٍ، وَيَتَبالَهُ فِي غَيْرِ بَلَهٍ، وَيَمْكُرُ في غَيْرِ خُبْثٍ، لِيَخْلُصَ مِنْ كَيْدِ ٱلْكائِدِينَ، وَبَطْشِ ٱلْمُعْتَدِينَ.

تَشابَهَ ٱلرَّجُلانِ، وَٱمْتَزَجَتْ آثارُ كُلٍّ مِنْهُما بِآثارِ صاحِبِهِ، كَما ٱمْتَزَجَتْ آثارُهُما مَعاً - بَعْدَ ذَلِكَ وَقَبْلَهُ - بِٱلْكَثِيرِ مِنْ آثارِ غَيْرِهِما مِنَ ٱلشَّخْصِيّاتِ ٱلْجُحَوِيَّةِ وَما إِلَيْها، وَما أُضِيفَ عَلَيْها - مِمَّا تَخَيَّلَهُ ٱلْمُتَخَيِّلُونَ - حَتّىٰ أَصْبَحَتْ كَلِمَةُ جُحا - الآنَ - كافِيَةً لِلتَّعْبِيرِ عَنْ كُلِّ جُحا، في كُلِّ عَصْرٍ، وَفِي كُلِّ أُمَّةٍ، كَما أَصْبَحَتْ كَلِمَةُ خُرافَةَ أَيْضاً كافِيَةً لِلتَّعْبِيرِ عَنْ كُلِّ حَدِيثٍ خَيالِيٍّ لا حَقِيقَةَ لَهُ: قَدِيماً كانَ أَمْ حَدِيثاً، رائِعاً أَمْ سَخِيفاً، عَرَبِيًّا أَمْ أَعْجَمِيًّا، شَرْقِيًّا أَمْ غَرْبِيًّا.

١٤ ـ الرَّمْزُ الجُحَوِيُّ

وَقَدْ أَصْبَحَ ٱلرَّمْزُ ٱلْجُحَوِيُّ - عَلىٰ تَوالي ٱلْعُصُورِ - أَشْبَهَ بِٱلرَّمْزِ ٱلْجَبْرِيِّ. فَإِنَّ «س»، تارَةً، تُساوِي مِلْيُوناً مِنَ ٱلْجُنَيْهاتِ، وَتارَةً تُساوِي عَشَرَ تُفّاحاتٍ، وَثالِثَةً صِفْراً، وَرابِعَةً سِتَّ دَجاجاتٍ.

* * *

وَقَدْ أَلَّفَ كَرْلَيل كِتَابَ «الأَبْطَالِ». فَتَحَدَّثَ عَنِ ٱلْبَطَلِ فِي صُورَةِ مُصْلِحٍ، وَٱلْبَطَلِ في صُورَةِ زَعِيمٍ، وَٱلْبَطَلِ فِي صُورَةِ قائدٍ، وَٱلْبَطَلِ فِي صُورَةِ شاعِرٍ... وَهَكَذَا.

وَسَيَرىٰ ٱلْمُتَتَبِّعُ لِتاريخِ جُحا ـ وَمَا نُسِبَ إِلَيْهِ مِنْ أَخْبارٍ ـ كَيْفَ سَلكَ ٱلْمُتَحَدِّثُونَ عَنْهُ مِثْلَ هذا ٱلْمَنْهَجِ، أَوْ ما يُقارِبُهُ.

فَمَثَّلُوا لَنا جُحا فِي صُورَةِ فَيْلَسُوفٍ، وَجُحا في صُورَةِ أَبْلَهَ، وَجُحا في صُورَةِ قَاضٍ، وَجُحا في صُورَةِ مُتَقاضٍ، وَجُحا في صُورَةِ سارِقٍ، وجُخا في صُورَةِ مَسْرُوقٍ، وَجُحا في صُورَةِ فَقِيرٍ، وَجُحا في صُورَةِ غَنِيٍّ... وَهَكَذَا.

وَأَصْبَحَتْ كلمةُ جُحا كافيةً في ٱلتَّعْبيرِ عَنْ هذا كُلِّهِ.

وقَدْ عَرَضْنَا لِتَفْصِيلِ ذلِكَ في كتاب «تاريخ جُحا»

الَذَّيِ قَبَسْنا لكَ وَجازَةً منْهُ ـ فِي هذِه الإِلْمامَةِ ـ لِنُمَهِّدَ بها لِما تَخَيَّرْناهُ مِنَ ٱلْقَصَصِ ٱلْجُحَوِيِّ ٱلرَّائِعِ، ٱلَّذِي ٱمْتَزَجَتْ فيهِ ٱلدُّعابَةُ بِٱلْجِدِّ، وَٱلْتَقَتْ فِيهِ ٱلْحَقِيقَةُ بِٱلْخَيالِ.

كامل كيلاني

اَلْقِصَّةُ اَلأُولَى

بِرْمِيلُ اَلْعَسَلِ



١ ـ تَمْهِيدُ الْقِصَّةِ

أَيُّها ٱلصَّبِيُّ ٱلْعَزِيزُ!

بِهذِهِ ٱلْقِصَصِ ٱلتَّالِيَةِ ٱفتَتَحَ خَوَاطِرَهُ أَبُو ٱلْغُصْنِ جُحا. وَقَدْ نَقَلْتُها عَنِ ٱلْمَخْطُوطِ ٱلْجُحَوِيِّ ٱلنَّفِيسِ ٱلَّذِي عَثَرْتُ عَلَيْهِ. وَهُوَ مَكْتُوبٌ بِخَطِّ ٱبْنِ أَخِيهِ: أَبِي ٱلسَّبَهْلَلِ[1]: طارِقِ بْنِ بَهْلَلَ بْنِ ثابِتٍ[2].

وَقَدْ أَهْداها جُحا إِلَى وَلَدَيْهِ: جَحْوانَ وَجُحَيَّةَ:

قالَ أَبُو ٱلْغُصْنِ عَبْدُ اللَّهِ دُجَيْنُ بْنُ ثابِتٍ ٱلْمُلَقَّبُ بِـ جُحا:

٢ ـ الْوَالِي الْجَدِيدُ

كانَ والِينا ٱلْجَدِيدُ، فِيما سَمِعْتُ وَسَمِعَ غَيْرِي مِنَ

---

(١) السَّبَهلل: الفارغ، الذي لا طائل منه، ولا عمل له.

(٢) هذا الاسم مركب، فالطارق: النجم، فهو في الشرق والعلو كالنجم؛ وبَهْلَل: الباطل، ويستعمل هذا الاسم عادة للدلالة على الذي لا يُعْرَف؛ وثابت: خلاف سابقه، أي: ثابت النسب والأبوة.

ٱلنَّاسِ ـ مِمّا تَرامَىٰ إِلَيْنا مِنْ أَنْبائه، أَعْنِي: مِمَّا ٱجْتَمَعَ لَنا مِنْ أَخْبارِهِ ـ يُحِبُّ ٱلْعَسَلَ حُبًّا شَدِيداً، وَيُؤْثِرُهُ (أَيْ: يَخْتارُهُ وَيُفَضِّلُهُ) عَلَىٰ غَيْرِهِ مِنْ أَلْوانِ ٱلْحَلْوَى (أَيْ: أَنْوَاعِها)، وَلَذائِذِ ٱلْفاكِهَةِ جَمِيعاً.

٣ ـ هَدِيَّةُ الْمُحْتَفِلِينَ

وَقَدِ ٱحْتَشَدْنا لاَسْتِقْبالِهِ (أَيْ: ٱجْتَمَعْنا لِهذا الأَمْرِ)، وَتأَهَّبْنا (أَيْ: تَهَيَّأْنا واسْتَعْدَدْنا) للاحْتِفاءِ بِمَقْدَمِهِ (أَيْ: ٱلْمُبالَغَةِ فِي إِكْرامِهِ، وَإِظْهارِ ٱلسُّرورِ وَٱلْفَرَحِ بِهِ)، بَعْدَ أَنِ ٱجْتَمَعَ رَأْيُنا عَلَىٰ أَنْ نُهْدِيَ إِلَيْهِ بِرْمِيلاً كَبِيراً، نَمْلَؤُهُ بِأَحَبِّ ٱلطَّعامِ إِلَيْهِ، وَهُوَ ٱلْعَسَلُ.

وَتَعاهَدْنا (أَيْ: تَحالَفْنا وَعَقَدْنا ٱلْعَزْمَ) عَلَى أَنْ يُسْهِمَ كُلُّ واحِدٍ مِنّا فِي هِذِهِ ٱلْهَدِيَّةِ بِأَيْسَرِ نَصِيبٍ (أَيْ: يَشْتَرِكَ فِيها بِأَقَلِّ شَيْءٍ يَقْدِرُ عَلَيْهِ)، فَيُلْقِيَ ـ فِي ٱلْبِرْمِيلِ ٱلْكَبِيرِ ـ بِمِقْدارِ فِنجانَةٍ صَغِيرَةٍ.

٤ ـ خاطِرٌ غريبٌ

وَخَطَرَ بِبالِي ـ حِينَئِذٍ ـ خاطِرٌ غَرِيبٌ. فَقَدْ سَوَّلَتْ (أَيْ: زَيَّنَتْ) لِي نَفْسِي أَنْ أَهْرُبَ مِنْ أَداءِ هذا ٱلْواجِبِ ٱلْيَسِيرِ (أَيْ: ٱلسَّهْلِ) الَّذِي لا يُكَلِّفُنِي شَيْئاً.

وَقُلْتُ فِي نَفْسِيَ، وَٱلنَّفْسُ أَمَّارَةٌ بِٱلسُّوءِ:

«إِنَّ مِئَاتٍ غَيْرِي مِنَ ٱلنَّاسِ سَيَقُومُونَ بِأَداءِ هذا ٱلْوَاجِبِ عَنِّي، وَلَنْ تُقَدِّمَ هَدِيَّتِي شَيْئاً وَلَنْ تُؤَخِّرَ.

٥ ـ فِنجانَةُ الْماءِ

فَلَوْ مَلأْتُ ٱلْفِجانَةَ ماءً ـ أَوْ عَسَلاً ـ لَمَا نَقَصَتِ ٱلْهَدِيَّةُ شَيْئاً، وَلَما زادَتْ، وَلَمَا شَعَرَ بِتَقْصِيرِي أَحَدٌ».

وَلَكِنْ شَدَّ ما دَهِشْتُ، حِينَ أَمَرَ ٱلْوالِي أَحَدَ أَتْباعِهِ أَنْ يَفْتَحَ بِرْمِيلَ ٱلْعَسَلِ أَمامَنا. وَلَمْ يَكَدْ يَفْتَحُهُ حَتَّى وَجَدَهُ مَمْلُوءًا ماءً كُلَّهُ، وَلَيْسَ فِيهِ قَطْرَةٌ واحِدَةٌ مِنَ ٱلْعَسَلِ.

٦ ـ بِزمِيلُ الماءِ

لَعَلَّكُما أَدْرَكْتُما ٱلسِّرَّ فِي ذٰلِكُما، يا وَلَدَيَّ ٱلْعَزِيزَيْنِ. فَإِنَّ تِلْكُما ٱلْفِكْرَةَ ٱلْخاطِئَةَ ٱلَّتِي مَرَّتْ عَلَىٰ بالِي، وَدَفَعَتْنِي ٱلأَثَرَةُ وَٱلأَنانِيَّةُ (أَيْ: حُبُّ ٱلنَّفْسِ) إِلَىٰ إِنْفاذِها، قَدْ مَرَّتْ عَلَى بالِ كُلِّ واحِدٍ مِنْ أَصْحابِيَ ٱلْمِئِينَ (أَيْ: ٱلْمِئاتِ)، ٱلَّذِينَ ٱجْتَمَعُوا لِتَكْرِيمِ ٱلْوالِي؛ وَهٰكَذا كانَتْ هَدِيَّتُنا إِلَى ٱلْوالِي بِزْمِيلَ ماءٍ، لا بِزْمِيلَ عَسَلٍ.

٧ ـ أَثَرُ الْهَدِيَّةِ

وَقَدْ تَرَكَتِ ٱلْهَدِيَّةُ فِي نَفْسِ ٱلْوالِي ـ بَعْدَ ذٰلِكُما ـ أَسْوَأَ ٱلأَثَرِ. وَكانَتْ سِيرَتُهُ مَعَنا ـ كَما كانَتْ سِيرَتُنا مَعَهُ ـ مِنْ أَقْبَحِ ٱلسِّيَرِ. وَقَدْ ماتَ ٱلْوالِي ـ مُنْذُ أَعْوامٍ ـ وَماتَ كَثِيرٌ مِمَّنْ شَهِدُوا ٱلْقِصَّةَ، وَلٰكِنَّها بَقِيَتْ ـ بَعْدَ ذٰلِكُما ـ حَدِيثَ مَجالِسِنا وَأَسْمارِنا إِلَىٰ ٱلْيَوْمِ.

٨ ـ الْعَظائِمُ وَالصَّغائِرُ

وَقَدْ عَلِمْتُ يَا وَلَدَيَّ ـ كَما عَلِمَ غَيْرِي ـ أَنَّهُ لَوْ بَذَلَ (أَيْ: لَوْ أَعْطَىٰ) كُلُّ إِنْسانٍ جُهْدَه، وَصَدَقَ وَعْدَهُ، لَتَحَقَّقَتْ أَحْلامُ ٱلنَّاسِ وَأَمَانِيهِمْ، وَظَفِرُوا (أَيْ: فازُوا) ـ مِنَ ٱلسَّعادَةِ وَٱلْهَناءِ ـ بِما يَبْهَجُ (أَيْ: بِما يَسُرُّ) نُفُوسَهُمْ وَيُرْضِيهِمْ.

وَذَكَرْتُ أَنَّ كُلَّ ما فِي ٱلْحَياة ـ مَهْما يَكُنْ عَظِيمَ ٱلْخَطَر (أَيْ: كَبِيرَ ٱلشَّأْنِ جَلِيلَ الْقَدْرِ) ـ إِنَّما يَتَأَلَّفُ (أَيْ: يَتَجَمَّعُ) مِنْ أَشْياءَ غايَةٍ فِي ٱلضَّآلَةِ (أَيْ: مُتَناهِيَةٍ فِي ٱلصِّغَرِ).

وَلا غَرْوَ (أَيْ: لا عَجَبَ) فِي ذٰلِكُما، يا وَلَدَيَّ.

فَهٰذِهِ ٱلْبِحارُ ٱلْواسِعَةُ، أَتَعْرِفانِ مِمَّ تَأَلَّفَتْ (أَعْنِي: مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَجَمَّعَتْ)؟

أَلَيْسَتْ هٰذِهِ ٱلْبِحارُ ٱلْعَظِيمَةُ مَجْمُوعَةً مِنْ قَطَراتٍ صَغِيرَةٍ جِدًّا مِنَ ٱلْماءِ، ٱجْتَمَعَتْ قَطْرَةً إِلَى جانِبِ أُخْرَىٰ؟

وَهذِهِ الأَرْضُ ٱلَّتِي تَمْشِيانِ عَلَيْها، أَتَدْرِيانِ (أَيْ: أَتَعْرِفانِ) مِمَّ تكَوَّنَتْ؟

أَلَمْ تَتَكَوَّنْ مِنْ ذَرَّاتٍ (أَيْ: أَجْزاءٍ صَغِيرَةٍ) مِنَ ٱلتُّرابِ وَٱلْحَصَىٰ؟

وَهذِهِ ٱلأَحْقابُ (أَيْ: ٱلأَزْمانُ وَٱلْعُصُورُ ٱلطَّوِيلَةُ) ٱلَّتي مَرَّتْ بِعالَمِنا ٱلأَرْضِيِّ ٱلَّذِي نَعِيشُ فِيهِ، مِمَّ ائْتَلَفَتْ؟

أَلَمْ تَأْتَلِفْ مِنْ ثانِيَةٍ مَرَّتْ فِي أَثَرِ ثانِيَةٍ (أَيْ: فِي عَقِبِها)، حَتَّى إِذا بَلَغَتِ ٱلسِّتِّينَ، تَأَلَّفَتْ مِنْها دَقِيقَةٌ.

ثُمَّ ماذا؟

ثُمَّ مَرَّتِ ٱلدَّقائِقُ ـ واحِدَةً تِلْوَ ٱلأُخْرَى (أَيْ: دَقِيقَةً تَتْبَعُ دَقِيقَةً) ـ فَلَمَّا بَلَغَ عَدَدُهَا سِتِّينَ، ٱنْقَضَتْ بِٱنْقِضائِها (أَيْ: ٱنْتَهَتْ بِٱنْتِهائِها) ساعَةٌ كامِلَةٌ مِنَ ٱلزَّمانِ.

ثُمَّ تَأَلَّفَ ٱلْيَوْمُ مِنَ ٱلسَّاعاتِ، وٱلأُسْبوعُ مِنَ ٱلأَيّامِ، وَٱلشَّهْرُ مِنَ الأَسابيعِ، وَٱلأَعْوامُ (أَيْ: ٱلسِّنُونَ) مِنَ ٱلشُّهُورِ، وَٱلأَحْقابُ (أَيْ: ٱلْعُصورُ) مِنَ ٱلسِّنِينَ.

٩ ـ أيامُ التَّحْصِيلِ

وَهذِهِ ٱلأَيّامُ ٱلَّتِي تَقْضِيانِها فِي طَلَبِ ٱلْعِلْمِ وتَحْصِيلِهِ، كَيْفَ تَنْتَهِي ـ أَيُّها ٱلْعَزِيزانِ ـ إِذا تَهاوَنْتُما فِي ٱلدَّرْسِ وَٱلتَّحْصِيلِ: لَحْظَةً بَعْدَ أُخْرَى، وَساعَةً بَعْدَ ساعَةٍ؟

إِنَّ ٱلسَّاعاتِ ٱلَّتِي تَبْذُلانِها (أَيْ: تُنْفِقانِها) فِي طَلَبِ ٱلْعِلْمِ، يَتَأَلَّفُ مِنْ مَجْمُوعِها ـ مَتَى كَبِرْتُما ـ ما يُمَيِّزُكُما (أَيْ: ما يُفْرِدُكُما) عَنْ أَبْناءِ عَصْرِكُما، مِنْ ثَقافَةٍ واسِعَةٍ، وَخِبْرَةٍ بارِعَةٍ، وَعِلْمٍ شامِلٍ، وَٱطِّلاعٍ كامِلٍ، كَما يَتَأَلَّفُ ٱلْبَحْرُ ٱلْعَظِيمُ مِنَ ٱلْقَطَراتِ ٱلصَّغِيرَةِ، وَٱلزَّمَنُ ٱلطَّوِيلُ مِنَ اللَّحَظاتِ ٱلْقَصِيرَةِ، وبِرْمِيلُ ٱلْعَسَلِ ـ أو بِرْمِيلُ ٱلْماءِ ـ مِنَ فِنْجانَةٍ صَغِيرَةٍ تَتْلُوها فِنْجانَةٌ صَغِيرَةٌ.

وَلَوْ خَصَّ كُلُّ إِنْسانٍ مِنَّا، أُولئِكَ ٱلْفُقَراءَ ٱلْبائِسِينَ بِشَيْءٍ ـ مَهْما صَغُرَ وَقَلَّ ـ مِنْ عَطْفِهِ وَعِنايَتِهِ، إِذَنْ

لأَصْبَحَتِ ٱلْحَياةُ جَنَّةً وادِعَةً (أَيْ: هادِئَةً)، وَتَبَدَّلَ شَقاؤُهُمْ سَعادَةً، وَأَلَمُهُمْ هَناءَةً وَرَغادَةً (أَيْ: طِيبَ عَيْشٍ)، وسُهادُهم غَمْضاً (أَيْ: لأَصْبَحَ سَهَرُهُمْ نَوْماً)، وشَظَفُهُمْ خَفْضاً (أَيْ: تَحَوَّلَ عَيْشُهُمُ ٱلضَّيِّقُ ٱلْيابِسُ ٱلشَّدِيدُ خِصْباً وَلِيناً وَدَعَةً وَسَعَةَ عَيْشٍ).

١٠ ـ خَاتِمَةُ القِصَّةِ

وَلَنْ يَخْطُرَ بِبالِكُما ـ إِنْ شَاءَ ٱللَّهُ ـ أَنْ تَقَعا فِيما وَقَعْتُ فِيهِ مِنْ خَطَإٍ، حِينَ أَصْغَرْتُ مِنْ شَأْنِ ٱلْفِنْجانَةِ (أَيْ: حِينَ ٱحْتَقَرْتُها وَٱسْتَهَنْتُ بِها)، فَوَقَعَ ما لَمْ يَكُنْ فِي ٱلحِسْبانِ، (أَيْ: حَدَثَ ما لَمْ يَدُرْ بِظَنِّي).

لَقَدْ كانَتْ هذِهِ ٱلْقِصَّةُ ـ أَيُّها ٱلْعَزِيزانِ ـ أَبْلَغَ دَرْسٍ وَعَيْتُهُ (أَيْ: حَفِظْتُهُ) فِي بَدْءِ شَبابِي (أَيْ: فِي أَوَّلِهِ)، وَأَدْرَكْتُ مَغْزاهُ، وَلَمْ أَنْسَهُ طُولَ ٱلْحَياةِ.

وَأَرْجُو أَنْ يَكُونَ لَكُما فِي هذِهِ ٱلْقِصَّةِ ـ كَما كانَ لِي فِيها ـ عِبْرَةٌ وتَذْكِرَةٌ، ومَوْعِظَةٌ وتَبْصِرَةٌ.

محفوظات:

صِغارُ الأشياءِ

قالَ أَبُو ٱلْعَلاءِ ٱلْمَعَرِّيُ: (مُنْذُ أَلْفِ عامٍ):

(١)

«ٱلْعَمَلُ ـ وَإِنْ قَلَّ ـ يُسْتَكْثَرُ، إِذا ٱتَّصَلَ وَدامَ».

لَوْ نَطَقْتَ ـ كُلَّ يَوْمٍ ـ لَفْظَةَ سُوءٍ (أَيْ: كَلِمَةً لا يَحْسُنُ بِكَ أَنْ تَقُولَها)، لاسْوَدَّتْ صَحِيفَتُكَ فِي رَأْسِ ٱلْعامِ.

وَلَوْ كَسَبْتَ ـ كُلَّ يَوْمٍ ـ حَسَنَةً، عُدِدْتَ ـ بَعْدَ زَمَنٍ ـ مِنَ ٱلأَبْرارِ (أَيْ: أَصْبَحْتَ واحِداً مِنَ ٱلأَخْيارِ ٱلصَّالِحِينَ).

إِنّ ٱلْيَوْمَ ائْتَلَفَ مِنَ ٱلسّاعِ (أَيْ: اجْتَمَعَ مِنَ ٱلسَّاعاتِ).

وَٱلشَّهرَ ٱجْتَمَعَ مِنَ ٱلأَيَّامِ.

وَٱلسَّنَةَ مِنَ ٱلشُّهورِ.

وَٱلْعُمْرَ يُسْتَكْمَلُ (أَيْ: يَتِمُّ) بِٱلسِّنِينَ.

(٢)

ٱلرَّجُلُ - مَعَ ٱلرَّجُلِ - عُصْبَةٌ (أَيْ: جَماعَةٌ).

وَٱلشَّعْرَةُ - مَعَ ٱلشَّعْرَةِ - ذُؤابَةٌ (وَهِيَ: ٱلضَّفِيرَةُ ٱلْمُرْسَلَةُ مِنَ ٱلشَّعْرِ).

وَٱلْحَجَرُ فَوْقَ ٱلْحَجَرِ جِدارٌ (أَيْ: حائِطٌ).

وٱلنَّخْلَةُ إِلَى ٱلنَّخْلَةِ حائِشٌ (أَيْ: جَماعَةٌ مِنَ ٱلنَّخْلِ).

(٣)

وٱلْمَسافَة ٱلشّاقَّةُ تُطْوَىٰ (أَيْ: تُقْطَعُ) بِٱلْخَطْوِ ٱلْقَصِيرِ، كَما يُطْوَىٰ ٱلْعُمْرُ بِٱلأَنْفاسِ (أَيْ: كما تَنْقَضِي أَعْمارُنا نَفَساً بَعْدَ نَفَسٍ).

* * *

وَقالَ شاعِرٌ إِنْكِليزِيٌّ:

«قَطراتُ ٱلْمِياهِ، مِنْها مُحيطٌ،

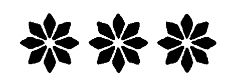
وَصِغارُ ٱلْحَصَىٰ، تُكَوِّنُ أَرْضا

وَدَقِيقاتُنا تُؤَلِّفُ دَهْراً،

بَعْدَ دَهْرٍ - في إِثْرِهِ - يَتَقَضَّىٰ

وَقَليلُ ٱلْحَنانِ وَٱلْحُبِّ، مِمَّا

يَجْعَلُ ٱلأَرْضَ جَنَّةَ ٱلْخُلْدِ خَفْضا»



ٱلْقِصَّةُ ٱلثَّانِيَةُ

يَوْمُ ٱلْقِيَامَةِ



١ ـ أَهْواءُ النَّاسِ

قالَ أَبُو ٱلْغُصْنِ جُحا:

مِنَ ٱلْحَقائِقِ ٱلثَّابِتَةِ عِنْدِي أَنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ قَلَّما يَعْنيهِمْ (أَيْ: نادِراً ما يَهُمُّهُمْ) مِنَ ٱلأَخْبارِ وَٱلأَحادِيثِ إِلاَّ ما يُوافِقُ أَهْواءَهُمْ (أَيْ: رَغَباتِهِمْ)، وَيُحَقِّقُ أَغْراضَهُمْ، وَيُلائِمُ مَصالِحَهُمْ.

وَقَدْ أَلِفْتُ (أَيْ: تَعَوَّدْتُ) مِنْهُمْ هذا ٱلْخُلُقَ، بَعْدَ أَنْ تَبَيَّنَ (أَيْ: ظَهَرَ) لِي أَنَّهُمْ يَجْرُونَ عَلَى ذٰلِكُما ٱلْمَنْهَجِ، أَعْنِي يَسِيرُونَ عَلَى هذِهِ ٱلطَّرِيقَةِ، مُنْذُ بَدْءِ ٱلْخَلِيقَةِ (أَيْ: مِنْ أَوَّلِ وُجُودِهِمْ فِي هذا ٱلْعالَمِ).

* * *

وَرَأَيْتُ أَنْ أَتَظاهَرَ بِتَصْدِيقِ ما أَسْمَعُهُ مِنْهُمْ، ثُمَّ أُعامِلَهُمْ بِمِثْلِ حُجَّتِهِمْ، وَآخُذَهُمْ بِمِثْلِ مَنْطِقِهِمْ.

وَطالَما جارَيْتُهُمْ فِيما يَقُولُونَ (أَيْ: كَثِيراً مّا جَرَيْتُ مَعَهُمْ فِي أَقْوالِهِمْ، وَوافَقْتُهُمْ عَلَيْها) رَيْثَما أُثْبِتُ

لَهُمْ كَذِبَ ما يَزْعُمُونَ. وَبِذلِكُما تَفادَيْتُ مِنَ ٱلاشْتِباكِ (أَيْ: تَحامَيْتُ ٱلْمُشاجَرَةَ) مَعَهُمْ، وَهَرَبْتُ مِنَ ٱلتَّمادِي فِي جِدالٍ عَقِيمٍ (أَيْ: لا ثَمَرَةَ فِيهِ)، وَٱلْوُقُوعِ فِي أَخْذٍ وَرَدٍّ لا طائِلَ تَحْتَهُما وَلا فائِدَةَ فِيهِما.

وَأَخَذْتُ نَفْسِي بِذلِكُما (أَيْ: أَلْزَمْتُ نَفْسِي بِهِ)، مُنْذُ بَدْءِ حَياتِي (أَيْ: مِنْ أَوَّلِها) إِلَىٰ ٱلْيَوْمِ. فَتَمَّ لِي ما أَرَدْتُ، وَٱبْتَسَمَتْ لِيَ ٱلْحَياةُ، فَلَمْ أَدَعْ (أَيْ: لَمْ أَتْرُكْ) لِلْحُزْنِ سَبِيلاً (أَيْ: طَرِيقاً) إِلىٰ نَفْسِي.

٢ ـ الْخَرُوفُ السَّمِينُ

وَإِلَيْكُما ـ يَا وَلَدَيَّ ٱلْعَزِيزَيْنِ ـ بَعْضُ ما حَدَثَ لِي فِي هذا ٱلْبابِ:

زارَنِي جَماعَةٌ مِنْ أَصْحابِي ـ ذاتَ يَوْمٍ ـ قَبْلَ أَنْ تُولَدا بِزَمَنٍ طَوِيلٍ. فَرَأَوْا فِي دارِي (أَيْ: نَظَرُوا فِي بَيْتِي) خَرُوفاً سَمِيناً رائِعَ ٱلْمَنْظَرِ (أَيْ: حَسَنَ ٱلْهَيْئَةِ).

فَسالَ لُعابُهُمْ (أَيْ: تَحَلَّبَ رِيقُهُمْ) شَوْقاً إِلَيْهِ.

وَٱئْتَمَرُوا بِه (أَيْ: تَشاوَرُوا فِي أَمْرِه) لِيَأْكُلُوهُ. وَما لَبِثُوا أَنِ ٱجْتَمَعَ رَأْيُهُمْ عَلَىٰ أَنْ يُوهِمُونِي بِأَنَّهُمْ قَدْ عَلِمُوا، مِنْ أَوْثَقِ ٱلْمَصادِرِ ٱلَّتِي لا يَتَسَرَّبُ (أَيْ: لا يَنْفُذُ) إِلَيْها ٱلْخَطَأُ، وَلا يَتَطَرَّقُ إِلَيْها ٱلشَّكُّ: أَنَّ قِيامَ ٱلسَّاعَةِ (أَعْنِي: أَنَّ يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ) غَداً.

٣ ـ مَأْدُبَةُ جُحا

ثُمَّ قالُوا مُجْتَمِعِينَ:

«ما دُمْنا وَاثِقِينَ مِنْ ذَلِكَ ـ يا أَبا الْغُصْنِ ـ فَما مَعْنَى ٱلإِبْقاءِ عَلَىٰ هَذا ٱلْخَرُوفِ ٱلسَّمِينِ؟ وَما بالُكَ لا تُعَجِّلُ (أَيْ: لِماذا لا تُسْرِعُ) بِذَبْحِهِ؟ لِتُعِدَّ (أَيْ: لِتُهَيِّىءَ) لَنا بِذلِكَ مَأْدُبَةً فاخِرَةً (أَيْ: طَعاماً لَذِيذاً). أَلَيْسَ مِنَ ٱلْخَيْرِ أَنْ نَنْعَمَ (أَيْ: نَهْنأَ) بِأَكْلِ هذا ٱلْخَرُوفِ ٱلسَّمِينِ، قَبْلَ أَنْ نَفْنَى (أَيْ: نَمُوتَ) وَيَفْنَى ٱلْعالَمُ كُلُّهُ مَعَنا؟»

٤ ـ في الْهَواءِ الطَّلْقِ

فَأَظْهَرْتُ تَصْدِيقَهُمْ، وَأَعْلَنْتُ ٱلْمُوافَقَةَ عَلَى اقْتِراحِهِمْ.

وَقُمْتُ إِلَى ٱلْخَرُوفِ ٱلسَّمِينِ فَذَبَحْتُهُ، وَسَلَخْتُ جِلْدَهُ، بَعْدَ أَنْ خَرَجْنا مَعاً إِلَى ٱلْهَواءِ ٱلطَّلْقِ، حَيْثُ أَوْقَدْتُ ناراً عَظِيمَةً، ثُمَّ أَلْقَيْتُهُ فِيها حَتَّى يَتِمَّ شَيُّهُ وَنُضْجُهُ.

وَخَلَعْتُ بَعْضَ ثِيابِيَ ٱلْخارِجِيَّةِ. وَٱقْتَدَوْا بِي فِي ذلِكُما (أَيْ: فَعَلُوا مِثْلَ ما فَعَلْتُ)، حَتَّى لا تَعُوقَنا (أَيْ: لا تَمْنَعَنا) ٱلثِّيابُ عَنِ ٱلانْطِلاقِ وَٱلْمَرَحِ وَٱلتَّمَتُّعِ بِٱلْحَياةِ ٱلسَّعِيدَةِ، قَبْلَ ٱنْتِهاءِ ٱلأَجَلِ.

٥ ـ في النَّارِ المُوقَدَةِ

وَانْتَهَزْتُ فُرْصَةَ اشْتِغالِهِمْ بِٱللَّهْوِ وَٱللَّعِبِ، فَأَلْقَيْتُ بِثِيابِ أَصْحابِيَ الأَعِزَّاءِ فِي ٱلنَّارِ الْمُوقَدَةِ (أَيْ: ٱلْمُشْتَعِلَةِ).

٦ ـ غَضَبُ الأَصْحَابِ

وَمَا كادَ أَصْحابِي يَفْطُنُونَ إِلَى ما فَعَلْتُ حَتَّى ٱنقَلَبَ فَرَحُهُمْ غَمًّا، وَٱسْتَوْلَى عَلَيْهِمُ ٱلْغَضَبُ، وَكادُوا يَخْتَنِقُونَ مِنْ فَرْطِ ٱلْحَنَقِ (أَيْ: مِنْ شِدَّةِ ٱلْغَيْظِ).

٧ ـ قِيامُ السَّاعَةِ

وَصَرَخَ أَصْحابِي مُغْتاظِينَ:

«كَيْفَ تَجْرُؤُ عَلَىٰ إِحْراقِ ثِيابِنا، يا أَبا ٱلْغُصْنِ؟ ما نَحْسَبُكَ إِلاَّ قَدْ جُنِنْتَ!».

فَقُلْتُ لَهُمْ ضاحِكاً:

«فِيمَ (أَيْ: لأَيِّ سَبَبٍ) ٱقْتَرَحْتُمْ عَلَيَّ أَنْ أَذْبَحَ ٱلْخَرُوفَ؟ أَلَمْ تَقُولُوا: إِن قِيامَ ٱلسَّاعَةِ (أَيْ: يَوْمَ ٱلْقِيامَةِ) غَداً؟ أَلَمْ تُجْمِعُوا ـ أَيُّها الأَصْحابُ ـ عَلَىٰ هَذا ٱلرَّأْيِ؟

فَعَلامَ تَغْضَبُونَ؟ وَما حاجَتُكُمْ إِلى ٱلثِّيابِ ـ أَيُّها ٱلرِّفاقُ ـ ما دُمْتُمْ واثِقينَ مِنْ أَنَّ آخِرَةَ ٱلْعالَمِ غَداً؟».

القِصّة الثالِثة

مُعَلِّمُ النُّباحِ



تمهيدُ ٱلقِصَّةِ

أيُّها الصَّبيُّ الْعَزِيزُ!

ما أَجْدَرَ أَنْ يَعْتَبِرَ (أَيْ: يَتَّعِظَ) بِهٰذِهِ ٱلْقِصَّةِ مَنْ يَرْسُمُونَ لِغَيْرِهِمْ طَرائِقَ ٱلاعْتِداءِ وَمَناهِجَ ٱلْجَوْرِ (أَيْ: أَسالِيبَ ٱلظُّلْمِ)، وَيَطُولُ إِطْراؤُهُمْ وَهُتافُهُمْ بها (أَيْ: امْتِداحُهُمْ إِيّاها وَثَناؤُهُمْ عَلَيْها)، وَإِعْجابُهُمْ وَتَصْفِيقُهُمْ لَها، مَتَىٰ وافَقَتْ أَهْدافَهُمْ (أَعْنِي: مَتَى أَصابَتْ أَغْراضَهُمْ)، وَأَعانَتْهُمْ عَلَىٰ قَضاءِ لُباناتِهِمْ (أَيْ: تَحْقِيقِ مآرِبِهِمْ وَرَغَباتِهِمْ). حَتَّى إِذا عارَضَتْ أَهْواءَهُمْ، وَٱصْطَدَمَتْ بِأَنانِيَّتِهِمْ (أَيْ: تَضارَبَتْ مَعَ حِرْصِهِمْ وغُلُوِّهِمْ فِي حُبِّ أَنْفُسِهِمْ)، ضاقُوا بِتِلْكَ ٱلطَّرائِقِ ذَرْعاً (أَيْ: ضَجِرَتْ نُفُوسُهُمْ بِتِلْكَ ٱلأَسالِيبِ)، وَلاقَوْا ـ مِنْ هذِهِ ٱلْمَناهِجِ (أَيْ: ٱلْمَسالِكِ) ـ فُنُوناً مِنَ ٱلْوَيْلِ (أَيْ: ضُرُوباً مِنَ ٱلْعَذابِ) وَأَلْواناً مِنَ ٱلشَّقاءِ، وَكانَ ذلِكَ لَهُمْ أَعْدَلَ جَزاءٍ.

ٱلفصل ٱلأوّل

١ ـ ضَلالُ الأهواءِ

قالَ أَبُو ٱلْغُصْنِ عَبْدُ اللَّهِ دُجَيْنُ بْنُ ثابِتٍ، ٱلْمُلَقَّبُ بِجُحا: «قاتَلَ ٱللَّهُ ٱلأَثَرَةَ (أَيْ: لَعَنَ ٱللَّهُ ٱلْحِرْصَ ٱلَّذِي يَدْفَعُ صاحِبَهُ إِلَىٰ تَخَيُّرِ ٱلأَشْياءِ ٱلْحَسَنَةِ لِنَفْسِهِ وٱلانْفِرادِ بِها دُونَ غَيْرِهِ). وَقَبَّحَ اللَّهُ ٱلأَنانِيَّةَ (أَيْ: حُبَّ ٱلنَّفْسِ). فَإِنَّهُما ـ يا وَلَدَيَّ الْعَزِيزَيْنِ ـ تُضِلاّنِ ٱلذَّكِيَّ (أَيْ: تُصَيِّرانِهِ إِلى ٱلضَّلالِ، وَتُبْعِدانِهِ عَنِ ٱلصَّوابِ)، وَتُلْغِيانِ (أَيْ: تُبْطِلانِ وَتُسْقِطانِ) عَقْلَهُ ٱلرَّاجِحَ، وَتُفْسِدانِ عَلَيْهِ مَنْطِقَهُ ٱلسَّدِيدَ (أَيْ: كَلامَهُ ٱلْمُصِيبَ ٱلصَّحِيحَ ٱلْقاصِدَ إِلَىٰ ٱلْحَقِّ)، فَلاَ يَلْبَثُ أَنْ يُعْمِيَهُ ٱلْهَوَىٰ (أَيْ: مَيْلُ ٱلنَّفْسِ إِلَىٰ ٱلْباطِلِ، وَزَيْغُها عَنِ ٱلطَّرِيقَةِ ٱلْمُثْلَىٰ)، وَيُنْسِيَهُ ٱلْغَرَضَ (أَيْ: ٱلْحاجَةُ ٱلَّتي يَسْعَى إِلَى تَحْقِيقِها) ما هُوَ خَلِيقٌ بِهِ (أَيْ: ما هُوَ واجِبٌ عَلَيْهِ) مِنَ ٱلاتِّزانِ (أَيْ: ٱلاعْتِدالِ) وَٱلْقَصْدِ (وَهُوَ: ٱلتَّوَسُّطُ بَيْنَ ٱلتَّبْذِيرِ وَٱلتَّقْتِيرِ).

٢ ـ سِلاحٌ ذُو حَدَّيْنِ

وَما أَخْلَقَ ٱلإِنْسانَ ٱلْعاقِلَ بِأَنْ يَعْرِفَ أَنَّ أَكْثَرَ ما يُشِيرُ بِهِ مِنَ ٱلرَّأْيِ عَلَىٰ غَيْرِهِ، إِنَّما هُوَ سِلاحٌ ذُو حَدَّيْنِ: أَحَدُهُما لَهُ، وَٱلآخَرُ عَلَيْهِ.

وَلا يَجُوزُ لِمُنْصِفٍ (أَيْ: لا يَحِقُّ لِعادِلٍ) ـ بَعْدَ أَنْ يَتَخَيَّرَ ٱلرَّأْيَ وَيَرْتَضِيَهُ (أَيْ: بَعْدَ أَنْ يَخْتارَهُ وَيَقْنَعَ بِهِ) ـ أَنْ يَقْبَلَ مِنْهُ ما هُوَ لَهُ، وَيَأْبَىٰ (أَيْ: يَكْرَهَ وَيَرْفُضَ) مِنْهُ ما هُوَ عَلَيْهِ (أَيْ: ما هُوَ ضِدُّهُ).

وَما أَوْلاهُ بِأَنْ يَرُوضَ نَفْسَهُ (أَيْ: ما أَجْدَرَهُ أَنْ يُذَلِّلَها وَيُمَرِّنَها) عَلَىٰ الإِنْصافِ (أَيْ: ٱلْعَدْلِ). فَإِنَّ ٱلإِنْصافَ في ٱلْمُعامَلَةِ يُوجِبُ عَلَى ٱلْمَرْءِ أَلاَّ يَأْخُذَ مِنْ صاحِبِهِ ـ مِنَ ٱلْمَنافِعِ ـ إِلاَّ مِثْلَ ما يُعْطِيهِ، ولا يُنِيلَهُ ـ مِنَ ٱلْمَضارِّ ـ إِلاَّ مِثْلَ ما يَنالُهُ مِنْهُ.

وَخَلِيقٌ بِهِ (أَيْ: واجِبٌ عَلَيهِ) أَنْ يَتَعَوَّدَ ٱحْتِمالَ عَواقِبِ مَشُورَتِهِ، (أَعْنِي: ٱلصَّبْرَ عَلَى نَتائِجِ نَصِيحَتِهِ)، فَلا

يُوجِّهَ ٱللَّوْمَ إِلىٰ غَيْرِهِ، بَعْدَ أَنْ يَسَّرَ (أَيْ: سَهَّلَ) لَهُ سَبِيلَ ٱلشَّرِّ وَٱلأَذِيَّةِ.

٣ ـ شَكْوَى جائِرَةٌ

أَقُولُ هذا لَكُما ـ يا وَلَدَيَّ ٱلْعَزِيزَيْنِ ـ بَعْدَ أَنْ قَصَّ عَلَيَّ بَعْضُ جيرانِي ـ فِي هَذا ٱلصَّباحِ ـ قِصَّتَهُ شاكِياً باكِياً، تكادُ مَرارَتُهُ تَتَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ (أَعْنِي: تَكادُ تَنْشَقُّ مِنَ ٱلْغَضَبِ)، وَهُوَ يَلْعَنُ أَنانِيَّةَ صاحِبِهِ، بَعْدَ أَنْ رَسَمَ لَهُ مَسْلَكَها، وَنَهَج لَهُ خُطَّتَها (أَيْ: أَبانَ طَرِيقَهُ إِلَيْها وَوَضَّحَها)، وَزَيَّنَ تَطْبِيقَها، وحَبَّبَ إِلَيْهِ تَحْقِيقَها.

٤ ـ رَأسُ الوَزَّةِ

وَفَدَ عَلَيَّ أَبُو عامِرٍ عابِسَ ٱلْوَجْهِ مُتَجَهِّماً، (أَعْنِي: أَنَّهُ ٱسْتَقْبَلَنِي بِوَجْهٍ مُكْفَهِرٍّ كَرِيهٍ).

فَسَأَلْتُهُ: ما خَطْبُهُ؟ (أَيْ: ما شَأْنُهُ؟ وأَيُّ مَكْرُوهٍ قَدْ أَصابَهُ؟)

فَقالَ: «أَتَذْكُرُ صاحِبَنا أَبا إِسْحاقَ؟».

قُلْتُ: «أَتَعْنِي رَأْسَ ٱلْوَزَّةِ؟».

قالَ: «ما عَنَيْتُ غَيْرَهُ، يا أَبا الْغُصْنِ!».

قُلْتُ: «فَلَيْسَ - فِي بَلَدِنا - أَحَدٌ يَجْهَلُهُ، أَوْ يَجْهَلُ ما نَزَلَ بِهِ مِنْ كَوارِثَ وَأَحْداثٍ (أَيْ: مصائِبَ وَمِحَنٍ)! لَطَفَ اللَّهُ بِهِ يا أَبا عامِرٍ! لَقَدْ سَمِعْتُ أَنَّهُ اخْتَلَطَ (أَيْ: جُنَّ وَذَهَبَ عَقْلُهُ)!».

فقالَ: «هذا كَلامٌ يُذاعُ (أَيْ: يَظْهَرُ وَيَنْتَشِرُ خَبَرُهُ)، وَيَمْلأُ ٱلأَسْماعَ (أَيْ: ٱلآذانَ)، وَإِنْ بَعُدَ عَنِ ٱلْحَقِيقَةِ بُعْدَ صاحِبِنا عَنِ ٱلْجُنُونِ! إِنَّ رَأْسَ ٱلْوَزَّةِ لَمْ يَخْتَلِطْ (أَيْ: لَمْ يُجَنَّ)، وَلَكِنَّهُ رَأَىٰ فِي جُنُونِهِ، مَهْرَباً (أَيْ: مَخْلَصاً) لَهُ مِنْ دُيُونِهِ. فَلاذَ بِهِ (أَيْ: ٱعْتَصَمَ بِهِ وَلَجَأَ إِلَيْهِ)، وَتَشَبَّثَ (أَيْ: تَعَلَّقَ) بِأَذْيالِهِ. ولَمْ تَلْبَثْ حِيلَتُهُ أَنْ جازَتْ (أَيْ: مَرَّتْ) عَلَىٰ كُلِّ مَنْ رَآهُ.

* * *

وَلَيْسَ هذا بِمُسْتَكْثَرٍ عَلَى مِثْلِهِ، فَهُوَ آيَةٌ مِنْ آياتِ ٱلْخِداعِ (أَيْ: مِثالٌ نادِرٌ مِنْ أَمْثِلَةِ ٱلْمَكْرِ وَٱلْحِيلَةِ) وَٱلْغَدْرِ (أَيْ: ٱلْخيانَةِ وَنَقْضِ ٱلْعَهْدِ) وَٱلْعُقُوقِ (أَيْ: ٱلاسْتِخْفافِ وٱلْعِصْيانِ، وتَرْكِ ٱلشَّفَقَةِ وَٱلإِحْسانِ).



ٱلفَصلُ ٱلثَّانِي

١ ـ تكاثُرُ الدُّيُونِ

فَقُلْتُ لِصاحِبِي مُتَعَجِّباً، مُنْكِراً عَلَيْهِ دَعْواهُ مُؤَنِّباً (أَيْ: لائِماً مُبَكِّتاً):

«ما عَلِمْتُ عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ! فَماذا بَدَرَ مِنْهُ، حَتَّىٰ ساءَ رَأْيُكَ فِيهِ، وَقَسا حُكْمُكَ عَلَيْهِ؟».

قالَ: «لَقَدْ أَرْهَقَتْهُ دُيُونُهُ (أَيْ: حَمَلَتْهُ عَلَى ما لا يُطِيقُ)، وَأَلَحَّ عَلَيْهِ دائِنُوهُ (أَيْ: أَقْبَلُوا عَلَيْهِ مُواظِبِينَ)، فَلَمْ يَجِدْ لَهُ وَسِيلَةً غَيْرَ ٱلاخْتِباءِ (أَيْ: ٱلاسْتِتارِ) فِي مَنْزِلِهِ، لِيَهْرُبَ مِنْ إِلْحافِ غُرَمائِهِ (أَيْ: إِلْحاحِ دائِنِيهِ)، وَيَنْجُوَ مِنْ مُضايَقَتِهِمْ وَمُطارَدَتِهِمْ (أَيْ: مُلاحَقَتِهِمْ) إِيَّاهُ.

٢ ـ أُنسٌ بَعْدَ وَحْشَةٍ

وَكُنْتُ قَدْ سَلَّفْتُهُ ـ فِي مَنْ سَلَّفَهُ ـ دَيْناً يَسِيراً.

وَرَأَيْتُ إِمْعانَهُ في ٱلاخْتِجابِ (أَيْ: مُبالَغَتَهُ في

ٱلاخْتِفاءِ)، فَما زِلْتُ أَحْتالُ عَلَيْهِ حَتَّى وَصَلْتُ إِلَيْهِ.

وَلَمْ يَكَدْ يَرانِي حَتَّى تَجَهَّمَ لِي (أَيْ: ٱسْتَقْبَلَنِي بِوَجْهٍ كَرِيهٍ) وَظَهَرَتِ ٱلْحَيْرَةُ (أَيْ: ٱلتَّرَدُّدُ) وَٱلارْتِباكُ (أَيْ: ٱلاضْطِرابُ وَٱخْتِلاطُ ٱلرَّأْيِ) عَلَى سِيماهُ، (أَعْنِي: عَلَى هَيْئَتِهِ وَمَرْآهُ).

فَهَوَّنْتُ عَلَيْهِ ٱلأَمْرَ. وَما زِلْتُ بِهِ حَتَّى سَكَنَ رُوعُهُ (أَيْ: ٱطْمَأَنَّ قَلْبُهُ)، وَسُرِّيَ عَنْهُ (أَيْ: كُشِفَ عِنْهُ ٱلْهَمُّ وَزالَ).

٣ ـ عَهْدٌ وَمِيثاقٌ

وَما عَتَّمَ (أَيْ: ما لَبِثَ) أَنْ راجَعَهُ أُنْسُهُ، وَعادَتْ إِلَيْهِ بَشاشَتُهُ (أَيْ: إِشْراقُ وَجْهِهِ وَطَلاقَتُهُ)، حِينَ عَرَضْتُ عَلَيْهِ وَسِيلَةً لِلنَّجاةِ مِنْ دَيْنِهِ وَدائِنِيهِ، وَٱلْفَكاكِ (أَيْ: ٱلْخَلاصِ وَٱلانْطِلاقِ) مِنْ أَسْرِهِ وَآسِرِيهِ (أَيْ: مِنْ قَيْدِهِ وَمُقَيِّدِيهِ)، عَلَىٰ أَنْ يَرُدَّ لِي ـ إِذَا نَجَحَتِ ٱلْخُطَّةُ ـ ما أَسْلَفْتُهُ (أَيْ: ما أَقْرَضْتُهُ) مِنْ دَيْنٍ.

فَتَهَلَّلَ بِشْراً، وَقالَ: «لَكَ عَلَيَّ عَهْدٌ (أَيْ: ذِمَّةٌ وَرِعايَةٌ)، وَمِيثاقٌ (أَيْ: ضَمانٌ) - إِنْ أَظْفَرْتَنِي بِذلِكَ (أَيْ: جَعَلْتَنِي أَفُوزُ بِهِ) - لأَرُدَّنَّ إِلَيكَ ضِعْفَ دَيْنِكَ (أَيْ: مِقْدارَهُ مَرَّتَيْنِ)، ثُمَّ لا أَنْسَيَنَّ لَكَ صَنِيعَكَ ما حَيِيتُ (أَيْ: لَنْ أَنْسَى مَعْرُوفَكَ طُولَ حَياتِي).

٤ ـ اقْتِراحٌ خَبِيثٌ

فَقُلْتُ لَهُ: «اَفْتَحْ دارَكَ - غَداً أَوْ بَعْدَ غَدٍ، إِنْ شِئْتَ - وَٱلْبَسْ أَفْخَرَ ثِيابِكَ، وَهَيِّئْ - في ساحَةِ ٱلدَّارِ - أَفْخَرَ مَجْلِسٍ تَسْتَطِيعُ أَنْ تُهَيِّئَهُ لاَسْتِقْبالِ عارِفِيكَ: دائِنِينَ وَغَيْرَ دائِنِينَ. ثُمَّ ٱجْلِسْ مُتَّكِئاً عَلَىٰ أَرِيكَةٍ تُعِدُّها (أَيْ: تُهَيِّئُها) فِي صَدْرِ مَجْلِسِكَ. وَتَكَلَّفِ ٱلْجِدَّ وَٱلْوَقارَ (أَيْ: تَظاهَرْ بِٱلْعَظَمَةِ وَٱلْحِلْمِ وَٱلرَّزانَةِ).

فَإِذَا مَرَّ بِكَ أَحَدٌ فَلا تَلْتَفِتْ إِلَيْهِ، وَلا تُلْقِ لَهُ بالاً.

فَإِذا حَيَّاكَ (أَيْ: سَلَّمَ عَلَيْكَ) فَلا تُجِبْ تَحِيَّتَهُ بِغَيْرِ ٱلنُّباحِ.

فَإِذا أَظْهَرَ لَكَ دَهْشَتَهُ فَٱنْبَحْ ثانِيَةً وثالِثَةً.

فَإِذا تَمادَىٰ فِي ٱلإِلْحاحِ (أَعْنِي: إِذا لَجَّ وَبَلَغَ فِيهِ ٱلْمَدَى ودامَ عَلَىٰ فِعْلِهِ)، تَمادَيْتَ في ٱلنُّباحِ (أَيْ: بَلَغْتَ فِيهِ ٱلْغايَةَ).

ثُمَّ ٱتَّخِذْ مِنَ ٱلنُّباحِ بَعْدَ ذلِكَ شِعاراً لَكَ (أَيْ: عَلامَةً تُعْرَفُ بِها)، فَلا تُجِبْ بِغَيْرِهِ كُلَّ مَنْ حَيَّاكَ، وَلَوْ كانَ أَخْلَصَ عارِفِيكَ، وَأَصْدَقَ مُحِبِّيكَ، وَأَقْرَبَ ٱلْمُقَرَّبِينَ إِلَيْكَ: منْ وَلَدِكَ وَأَهْلِكَ.

ٱنْبَحْ وَلا تَكُفَّ (أَيْ: لا تَمْتَنِعْ) عَنِ ٱلنُّباحِ.

وَٱعْوِ (أَيْ: ٱنْبَحْ) فَلا تُقَصِّرْ فِي ٱلْعُوَاءِ، حَتَّىٰ يَضْجَرُوا بِكَ، فَيَرْفَعُوا أَمْرَكَ إِلَىٰ وَالي ٱلْمَدِينَةِ.

فَإِذا مَثَلْتَ (أَيْ: وَقَفْتَ) أَمامَهُ، فَٱعْتَصِمْ بِٱلصَّمْتِ (أَيْ: ٱلْزَمِ ٱلسُّكُوتَ، وَصاحِبْهُ، وَلا تَتْرُكْهُ).

فَإِذَا سَأَلَكَ عَنْ جَلِيَّةِ أَمْرِكَ (أَيْ: حَقِيقَتِهِ) لَمْ تُحِرْ (أَيْ: لَمْ تَرُدَّ) مِنْ جوابٍ، إِلاَّ أَنْ تَمْلأَ أُذُنَيْهِ عُواءً (أَيْ: نُباحاً).

وَحَذارِ أَنْ تُغَيِّرَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئاً أَوْ تُبَدِّلَهُ، حَتَّى يَقِرَ فِي نَفْسِ ٱلْوَالِي (أَيْ: يَقَعَ وَيَبْقَىٰ أَثَرُهُ فِيها) أَنَّكَ غَيْرُ مُتَصَنِّعٍ (أَيْ: غَيْرُ مُتَكَلِّفٍ). فِيما تَأْتِيهِ، وَلا كاذِبٍ فِيما تَدَّعِيهِ.

فَإِذا ٱقْتَنَعَ أَنَّ طائِفاً مِنَ ٱلْجُنُونِ قَدْ أَلَمَّ بِكَ، لَمْ يَجِدْ فائِدَةً مِنْ حِوارِكَ (أَيْ: مُناقَشَتِكَ).

وَسَيَدْفَعُهُ ٱلْيَأْسُ مِنْكَ إِلَى إِطْلاقِ سَراحِكَ، وَرَدِّ حُرِّيَّتِكَ إِلَيْكَ، وَإِعْفائِكَ مِمَّا عَلَيْكَ مِنْ دَيْنٍ.

* * *

أَتَعْرِفُ يا أَبا ٱلْغُصْنِ كَيْفَ ٱسْتَقْبَلَ رَأْسُ الْوَزَّةِ هذِهِ ٱلنَّصِيحَةَ الْغَالِيَةَ؟ لَقَدْ أُفْعِمَتْ نَفْسُهُ - حِينَ سَمِعَها - عِرْفاناً لِلْجَمِيلِ (أَيْ: ٱمْتَلأَتْ بِٱلشُّكْرِ، لِما قَدَّمْتُهُ مِنْ مَعْرُوفٍ)، وَلَهِجَ لِسانُهُ بِأَبْلَغِ عِباراتِ ٱلإِطْراءِ (أَيْ: ٱلْمَدْحِ) وَٱلثَّناءِ عَلَىٰ ما يَسَّرْتُهُ (أَيْ: سَهَّلْتُهُ) لَهُ مِنْ أَسْبابِ ٱلنَّجاةِ مِنْ وَرْطَتِهِ (أَيْ: وَسائِلِ ٱلْفَكاكِ مِمّا أَلَمَّ بِهِ مِنَ ٱلضِّيقِ)، وَٱلْخَلاصِ مِنْ كُرْبَتِهِ، (وَٱلْكُرْبَةُ: ٱلْحُزْنُ يَأْخُذُ بِٱلنَّفْسِ).

الفَصْلُ ٱلثَّالِثُ

١ ـ تَحِيَّةٌ نابِحَةٌ

فَلَمَّا جاءَ ٱلْغَدُ، نَفَّذَ ٱلْخُطَّةَ (أَيْ: أَنْجزَها) ـ وَفْقَ ما رَسَمْتُها لَهُ ـ فِي بَراعَةٍ (أَيْ: خِبْرَةٍ زائِدَةٍ) وَحِذْقٍ (أَيْ: مَهارَةٍ وَمَعْرِفَةٍ لِغَوامِضِها وَدَقَائِقِها).

قَدِمَ عَلَيْهِ زائِرٌ مِنْ جِيرانِهِ. فَلَمْ يَكَدْ يَراهُ جَالِساً حَتَّى قَرَأَ عَلَيْهِ (أَيْ: أَبْلَغَهُ) ٱلسَّلامَ، وَحَيَّاهُ أَحْسَنَ تَحِيَّةٍ، فَكانَ رَدُّهُ عَلَيْهِ نُباحاً. وَأَقْبَلَ ثانٍ وَثالِثٌ وَرابِعٌ، فَلَمْ يَلْقَوْا مِنْهُ غَيْرَ ما لَقِيَهُ أَوَّلُ ٱلْقادِمِينَ عَلَيْهِ.

٢ ـ ذُيوعُ القِصَّةِ

وَلَمْ يَمْضِ زَمَنٌ يَسِيرٌ (أَيْ: وَقْتٌ قَلِيلٌ) حَتَّى ذاعَتْ (أَيْ: ظَهَرَتْ وَعُرِفَتْ) قِصَّتُهُ فِي ٱلْمَدِينَةِ. فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ دائِنُوهُ يَتَقاضَوْنَهُ دُيُونَهُم (أَيْ: يُطالِبُونَهُ بِها)، فَلَمْ يَلْقَوْهُ إِلاّ عاوِياً.

وَراحُوا يَعْنُفُونَ بِهِ (أَيْ: يَقْسُونَ عَلَيْهِ) تارَةً (أَيْ:

مَرَّةً) ويَلِينُونَ لَهُ تارَةً أُخْرَى، ثُمَّ يُسْرِفُونَ فِي وَعِيدِهِم (أَيْ: يُبالِغُونَ فِي تَهْدِيدِهِمْ) حِيناً، وَفِي تَلَطُّفِهِمْ أَحْياناً. فَلَمْ تُجْدِ (أَيْ: فَلَمْ تَنْفَعْ) فِي رَدِّهِ عَنْ عُوائِهِ حِيلَةٌ، وَلا أَغْنَتْ (أَيْ: لَمْ تُفْلِحْ) فِي رَدْعِهِ (أَيْ: زَجْرِهِ) وَسِيلَةٌ.

٣ ـ بَيْنَ يَدَيْ الْوالِي

فَلَمَّا يَئِسُوا مِنْهُ، ذَهَبُوا بِهِ إِلَىٰ ٱلْوالِي. فَسَأَلَهُ عَنْ قِصَّتِهِ، فَنَبَحَهُ. فَزَجَرَهُ ٱلْوالِي وَتَوَعَّدَهُ، فَوَجَدَهُ يَسْتَرْسِلُ (أَيْ: يَتَمادَىٰ) فِي ٱلنُّباحِ. ومَا زالَ بِٱلْوالِي حَتَّىٰ أَضْجَرَهُ. فَأَمَرَ بِزَجِّهِ فِي ٱلْمَحْبِسِ، وَوَكَّلَ بِهِ مَنْ يُراقِبُهُ عِدَّةَ أَيَّامٍ لِيَخْبُرَ أَمْرَهُ، وَيَجْلُوَ سِرَّهُ، فَلَمْ يَظْفَرْ مِنْهُ مُراقِبُوهُ بِشَيْءٍ غَيْرَ ما تَواصَلَ مِنْ نُباحِهِ.

٤ ـ عُيونُ الْوالِي

فَأَمَرَ بِإِطْلاقِ سَراحِهِ، بَعْدَ أَنْ بَثَّ لَهُ بَعْضَ ٱلْعُيُونِ وَٱلأَرصادِ (أَيْ: نَشَرَ حَوْلَهُ بَعْضَ ٱلْجَواسِيسِ)، يَكْمُنونَ له في غُدُواتِهِ وَرَوْحاتِهِ، لِيَرَوْا ما يَصِيرُ إِلَيْهِ شَأْنُهُ. فَظَلُّوا

يَتْبَعُونَ ظِلَّهُ (أَيْ: يَقْتَفُونَ أَثَرَهُ) أَيَّاماً، فَلَمْ يَتَحَوَّلْ عَنْ حالِهِ فَتِيلاً. فَأَيْقَنَ ٱلْوالِي - حِينَئِذٍ - أَنَّهُ لا بُدَّ قَدْ أَصابَهُ لَمَمٌ (وَهُوَ طَرَفٌ مِنْ جُنُونٍ يُلِمُّ بِٱلإِنْسانِ)، أَوْ أَدْرَكَهُ مَسٌّ مِنَ ٱلْخبالِ.

٥ - الْخَلاصُ مِنَ الدَّيْنِ

فَلَمْ يَرَ لَهُ ٱلْوالِي حِيلَةً فِيهِ. فَقَضَى بِإِسْقاطِ دُيُونِهِ، وَأَمَرَ دائِنِيهِ بِٱلإِقْلاعِ (أَيْ: ٱلتَّرْكِ وَٱلْكَفِّ) عَنْ مُطالَبَتِهِ بِما لَهُمْ قِبَلَهُ (أَيْ: عِنْدَهُ) مِنَ ٱلْحُقُوقِ.

وَهكَذَا خَلَصَ رَأْسُ الْوَزَّةِ مِمّا رَكِبَهُ مِنْ دَيْنٍ، وَتَبَدَّلَ خَوْفُهُ أَمْناً، وَفَزَعُهُ طُمَأْنِينَةً.

وَأَصْبَحَ يَغْدُو ويَرُوحُ (أَيْ: يَذْهَبُ ويَجِيءُ) كَما شاءَ، مَتىٰ شاءَ، حَيْثُ (أَيْ: فِي أَيِّ مَكانٍ) شاءَ، دُونَ أَنْ يُزْعِجَهُ (أَيْ: مِنْ غَيْرِ أَن يُقْلِقَهُ، أَوْ يُزَحْزِحَهُ عَنْ مَكانِهِ) دائِنٌ، أَوْ يُنَغِّصَ (أَيْ: يُكَدِّرَ) عَلَيْهِ صَفْوَ عَيْشِهِ غَرِيمٌ (أَيْ: خَصْمٌ يُطالِبُهُ بِدَيْنٍ)».

الفصل الرابع

١ ـ رَدُّ الجَميل

وَصَمَتَ (أَيْ: سَكَتَ) أَبُو عامِرٍ وَأَطْرَقَ بِرَأْسِهِ ـ بُرْهَةً ـ وَقَدْ بَدا عَلَى سِيماهُ ٱلْوُجُومُ (أَيْ: ظَهَرَ عَلَى هَيْئَتِهِ السُّكُوتُ في غَيْظٍ، وَٱلْعَجْزُ عَنِ ٱلتَّكَلُّمِ مِنْ كَثْرَةِ ٱلْغَمِّ وَٱلْخَوْفِ) وَتَجَلَّتْ عَلَىٰ أَسارِيرِهِ (أَيْ: تَكَشَّفَتْ عَلَى خُطُوطِ جَبِينِهِ) أَمَاراتُ ٱلْحَسْرَةِ وَٱلانْقِباضِ ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَكأَنَّما اسْتَيْقَظَ (أَيْ: انْتَبَهَ) مِنْ تَفْكِيرٍ عَمِيقٍ.

وٱسْتَأْنَفَ حَدِيثَهُ قَائِلاً:

«أَتَعْرِفُ يا أَبا ٱلْغُصْنِ كَيْفَ جَزانِي عَلَى هذا ٱلصَّنِيعِ؟ (أَيْ: كَيْفَ كافَأَنِي عَلَى هذا ٱلْمَعْرُوفِ؟)».

فَقُلْتُ لَهُ مُبْتَسِماً هازِئاً (أَيْ: ساخِراً)، وَقَدْ ٱمْتَلأَتْ نَفْسِي زِرايَةً عَلَيْهِ (أَيْ: ٱسْتِخْفافاً بِهِ، وَٱحْتِقاراً لَهُ)، وَنُفُوراً مِنْهُ (أَيْ: إِعْراضاً وَتَباعُداً عَنْهُ):

«لا شَكَّ عِنْدِي فِي أَنَّهُ سارَ عَلَى ٱلنَّهْجِ ٱلْقَوِيمِ

(أَيْ: ٱلطَّرِيقِ ٱلْمُسْتَقِيمِ) ٱلَّذِي رَسَمْتَهُ لَهُ فِي ٱغْتِيالِ حُقُوقِ ٱلنَّاسِ، أَعْنِي: أَخْذَها وَٱلاسْتِيلاءَ عَلَيْهَا بِطَرِيقٍ خَفِيَّةٍ وَحِيلَةٍ مُدَبَّرَةٍ. فَنَبَحَ فِي وَجْهِكَ، كَما نَبَحَ فِي وُجُوهِ دائِنِيهِ، ثُمَّ فِي وَجْهِ وَالِيهِ».

قالَ أَبُو عامِرٍ: «ما أَبْرَعَ ذَكاءَكَ، وَأَنْفَذَ فِطْنَتَكَ يا أَبا الْغُصْنِ. لَقَدْ جِئْتُهُ - بَعْدَ أَنْ هَدَأَ بالُهُ وقَرَّ قَرارُهُ - أُذَكِّرُهُ عَهْدَهُ، وَأَسْتَنْجِزُهُ وَعْدَهُ (أَيْ: أَطْلُبُ مِنْهُ ٱلْوَفاءَ بِهِ)، فَما زادَ عَلَى ٱلنُّباحِ. فَدَهِشْتُ مِنْ جُرْأَتِهِ، وَتَمَلَّكَتْنِي ٱلْحَيْرَةُ مِنْ صَفاقَتِهِ (أَيْ: وَقاحَتِهِ).

وَقُلْتُ لَهُ: «لَكَ أَنْ تُمَثِّلَ هذا ٱلدَّوْرَ مَعَ كُلِّ إِنْسانٍ - كائِناً مَنْ كانَ - إِلاَّ مَعِي، فَأَنا واضِعُ خُطَّتِهِ، وَمُبْدِعُ قِصَّتِهِ (أَيْ: مُبْتَكِرُها وَمُخْتَرِعُها)، فَتَكَلَّمْ وَيْحَكَ (أَيْ: أَنْزَلَ اللَّهُ بِكَ ٱلْوَيْلَ وٱلشَّرَّ)!».

فَأَبَى إِلاَّ عُواءً يَتْلُوهُ عُواءٌ. وَكُلَّما تَمادَيْتُ فِي مُخاطَبَتِهِ تَمادَىٰ فِي عُوائِهِ، حَتَّىٰ نَفِدَتْ (أَيْ: فَنِيَتْ

وَذَهَبَتْ) حِيلَتِي، وَدَبَّ ٱلْيَأْسُ (أَيْ: سَرَىٰ وَمَشَىٰ) إِلَىٰ قَلْبِي.

فَغادَرْتُهُ (أَيْ: تَرَكْتُهُ) مَحْزُونَ ٱلْقَلْبِ مَهِيضَ ٱلْجَناحِ (أَيْ: مَكْسُورَ ٱلجناحِ. أَعْنِي: أَنَّهُ ضَعِيفٌ عاجِزٌ لا قُدْرَةَ لَه وَلا قُوَّةَ).

٢ ـ غَدْرُ النَّاسِ

وَرَجَعْتُ إِلَى داري أُفَكِّرُ فِيما ٱنطَوَتْ عَلَيْهِ نُفُوسُ ٱلنَّاسِ (أَيْ: ما أَضْمَرَتْهُ وَٱنْتَوَتْهُ) ـ مِنْ غَدْرٍ وَلُؤْمٍ وَفَسادٍ ـ بَعْدَ أَنْ رَأَيْتُ مِنْ صاحِبِي ما لَمْ يَكُنْ لِيَخْطُرَ لِي عَلَىٰ بالٍ، مِنْ فُنُونِ ٱلْعُقُوقِ، وَسَلْبِ ٱلْحُقُوقِ.

٣ ـ مَنِ الْمَلُومُ

وَلَكِنْ خَبِّرْنِي بَرِبِّكَ يا أَبا ٱلْغُصْنِ ـ كَيْفَ تَبَيَّنْتَ خاتِمَةَ ٱلْقِصَّةِ (أَيْ: كَيْفَ فَهِمْتَ نِهايَتَها فَهْماً واضِحاً)، قَبْلَ أَنْ أُفْضِيَ بِها إِلَيْكَ (أَيْ: قَبْلَ أَنْ أُخْبِرَكَ بِها)؟».

فَقُلْتُ لَهُ مُسْتَغْرِباً (أَيْ: مُبالِغاً فِي الضَّحِكِ):

«إِنَّ عَجَبِي مِنْكَ ـ لا مِنْهُ ـ شَدِيدٌ. فَلَيْسَ عَلَيْهِ ـ فِيما صَنَعَ ـ غُبارٌ، أَعْنِي: أَنَّه لَمْ يَفْعَلْ شَيْئاً يُؤْخَذُ بِهِ وَيُلامُ عَلَيْهِ.

لَقَدْ رَسَمْتَ لَهُ ٱلطَّرِيقَ واضِحَةً جَلِيَّةً (أَيْ: بَيِّنَةً)، فَسَلَكَها مُهْتَدِياً بِهَدْيِكَ؛ ما تَنَكَّبَ عَنْها (أَيْ: لَمْ يَعْدِلْ)، وَلا حادَ (أَيْ: لَمْ يَمِلْ). فَمَنْ تَلُومُ؟ وَمِمَّ تَشْكُو؟

أَلَمْ تُعَلِّمْهُ كَيْفَ يَغْتالُ حُقُوقَ ٱلنَّاسِ (أَيْ: يَأْخُذُها مِنْ حَيْثُ لا يَدْرُونَ أَنَّهُ يَنْوِي ٱغْتِصابَها)؟

وَهَلْ أَنْتَ إِلاَّ واحِدٌ مِنَ ٱلنَّاسِ؟

فَكَيْفَ تُرِيدُهُ عَلَى ٱلْوَفاءِ (أَيْ: كَيْفَ تُوجِبُ عَلَيْهِ ذلكَ)؟

وَما بالُكَ (أَيْ: ما شَأْنُكَ) تَطْمَعُ أَلاَّ يَغْتالَ حَقَّكَ فِيما يَغْتالُ؟

ما أَجْدَرَكَ ـ يا صاحِبِي ـ أَنْ تَشْكُرَ لِهَذا ٱلرَّجُلِ أَمانَتَهُ فِي ٱلانْتِصارِ لِرَأْيِكَ، وَٱلتَّحَمُّسِ لِخُطَّتِكَ، وٱلانْتِفاعِ بِتَدْبِيرِكَ وَمَشُورَتِكَ.

لَقَدْ لَقَّنْتَهُ (أَيْ: فَهَّمْتَهُ) دَرْساً في ٱلأَثَرَةِ (أَيْ: حُبِّ ٱلنَّفْسِ) وَٱلأَنانِيَّةِ (أَيْ: شِدَّةِ ٱلْحِرْصِ)، فَحَفِظَهُ عَنْكَ وَلَمْ يَنْسَهُ لَكَ.

وَسَنَنْتَ لَهُ سُنَّةً (أَيْ: خُطَّةً) مِنْ سُنَنِ ٱلْعُقُوقِ وَٱلْغَدْرِ، فَٱقْتَفَىٰ آثارَكَ، (أَيْ: ٱتَّبَعَ خُطْواتِكَ)، وَٱرْتَضَى سِيرَتَكَ (أَيْ: ٱخْتارَ طَرِيقَتَكَ).

وَلَوْ حَسَّنْتَ لَهُ ٱلْوَفاءَ، وَرَسَمْتَ لَهُ طَرِيقَهُ، لأَدَّىٰ لَكَ دَيْنَكَ كَما يُؤَدِّيهِ لِلنَّاسِ، ثُمَّ خَبِّرْني بِرَبِّكَ ـ يا أَبا عامِرٍ ـ أَتُراكَ كُنْتَ شاكِياً غَدْرَ صاحِبِكَ وَتَفْرِيطَهُ فِي رَدِّ ٱلأَماناتِ إِلَى أَهْلِها، لَوْ أَنَّهُ أَدَّى لَكَ دَيْنَكَ وَحْدَكَ، ثُمَّ ٱغْتالَ دُيُونَ غَيْرِكَ؟

٤ ـ الذِّئبُ وَالْغَنَمُ

أَرَأَيْتَ ـ يا صاحِبي ـ لَوْ سَمِعْتَ أَنَّ رَجُلاً هَدَى ٱلذِّئْبَ إِلَى طَرِيقِ ٱلْغَنَمِ، بَعْدَ أَنْ أَخَذَ عَلَيْهِ ما شاءَ ـ مِنْ عُهُودٍ وَمَواثِيقَ ـ أَنْ يُعْفِيَ شَاتَهُ (أَيْ: نَعْجَتَه أَوْ خَرُوفَهُ) مِنْ بَيْنِها جَمِيعاً، أَتُراهُ كانَ فاعِلاً؟

لَقَدْ عَلَّمْتَهُ ٱلْعُواءَ، فَعَوَىٰ. وَأَرْشَدْتَهُ إِلَى طَرِيقِ ٱلْغَوايَةِ، فَغَوَىٰ! وَٱسْتَباحَ مِنَ ٱلْحُقُوقِ ما ٱسْتَباحَ، بِفَضْلِ ما عَلَّمْتَهُ مِنْ فُنُونِ ٱلْعُواءِ وَٱلنُّباحِ.

٥ ـ حِيلَةُ رَأْسِ الْوَزَّةِ

وَلَيْسَ هذا أَوَّلَ مَنْ نَبَحَ، فَكَسَبَ بِنُباحِهِ وَرَبِحَ. وَكَمْ مِنَ ٱلنَّاسِ آثَرُوا (أَيْ: اخْتارُوا) أَنْ يَبْلُغُوا أَهْدافَهُمْ (أَيْ: يَنالُوا أَغْراضَهُمْ) بِٱلْهُراءِ (أَيْ: بِٱلْمَنْطِقِ ٱلْكَثِيرِ ٱلْفاسِدِ لا نِظامَ لَهُ)، وَطَلَبُوا أَنْ يَتَسَنَّمُوا ٱلْمَجْدَ (أَيْ: يَرْتَفِعُوا إِلَيْهِ)، بِقَوْلِ جُفاءٍ، أَعْنِي: بِقَوْلٍ باطِلٍ. وَٱلْجُفاءُ: ما يَظْهَرُ عَلَى ٱلْماءِ مِنْ رَغْوَةٍ وَزَبَدٍ وَنَحْوِ ذلكَ مِمَّا لا خَيْرَ فِيهِ.

فَتَصَنَّعُوا ٱلْجُنُونَ (أَيْ: تَظاهَرُوا بِهِ)، لِيُصْبِحُوا أَعِزَّةً، بَعْدَ أَنْ أَعْوَزَهُمْ (أَيْ: فاتَهُمْ) أَنْ يَظْفَرُوا في ظِلالِ ٱلْعَقْلِ بِٱلْكَرامَةِ وَالْعِزَّةِ، كَما فَعَلَ صاحِبُكَ رَأْسُ الْوَزَّةِ.

٦ ـ ثَوْرَ الْوالِي كَمِيش

لَقَدْ ذَكَّرَنِي حُكْمُكَ ٱلْجائِرُ، يا أَبا عامِرٍ بِحُكْمِ والِينا: كَمِيش.

أَتَذْكُرُ قِصَّتَهُ مَعِي؟

فَقالَ: «أَيَّةَ قِصَّةٍ عَنَيْتَ، فَإِنَّ قِصَصَهُ لا تَنْتَهِي؟»

فَقُلْتُ: ذَهَبْتُ إِلَيْهِ ـ ذاتَ يَوْمٍ ـ شاكِياً. فَبَدَأْتُ شَكْوَايَ قائِلاً: «إِنَّ لِمَوْلاَيَ الْوالِي ـ فِيما أَعْلَمُ ـ ثَوْراً أَحْمَرَ».

فَأَجابَنِي: «صَدَقْتَ يا أَبا الْغُصْنِ، فَما بالُهُ».

قُلْتُ: «لَقَدْ نَطَحَ بَقَرَتِي في بَطْنِها، فَبَقَرَها (أَيْ: شَقَّها وَفَتَحَها)، وَأَخْرَجَ أَمْعَاءَها، وَقَتَلَها في ٱلْحالِ».

فَقالَ لِي مُتَبَرِّماً عابِسَ ٱلْوَجْهِ مُتَجَهِّماً:

«وَما شَأْنُ ٱلْوالِي بِما يَفْعَلُهُ ٱلْحَيَوانُ؟ أَتُرِيدُ أَنْ أُعاقِبَهُ عَلَىٰ فَعْلَتِهِ، وَأُحاسِبَهُ عَلَىٰ إِساءَتِهِ؟

أَلا تَعْلَمُ أَنَّ دَمَ ٱلْحَيَوانِ جُبارٌ (أَيْ: هَدَرٌ)؟».

فَقُلتُ لَهُ مُتَخابِثاً، بَعْدَ أَنْ أَعْلَنَ رَأْيَهُ صَرِيحاً واضِحاً لا لَبْسَ فِيهِ وَلا خَفاءَ، وأَصْدَرَ حُكْمَهُ فِي ٱلْقِصَّةِ خالِصاً عَنِ ٱلْهَوَىٰ مُبَرَّأً مِنَ ٱلْغَرَضِ:

«أَناةً (أَيْ: عَلَى مَهلِكَ) يا سَيِّدِي ٱلْوَالِي! لَقَدْ تَسَرَّعْتُ، فَرَوَيْتُ لَكَ ٱلْقِصَّةَ مَعْكُوسَةً عَنْ غَيْرِ قَصْدٍ».

* * *

فَقالَ لِي مُتَحَيِّراً: «وَما ذاكَ؟».

فَأَجَبْتُهُ: «أَرَدْتُ أَنْ أَقُولَ: إِنَّ بَقَرَتِي ـ يا مَوْلايَ ـ هِيَ الَّتِي قَتَلَتْ ثَوْرَكَ ٱلأَحْمَرَ».

فَصرخَ كَمِيشٌ مُتَفَزِّعاً:

«الآنَ تَغَيَّرَ وَجْهُ ٱلْمَسْأَلَةِ يا خَبِيثُ! فأعِدْ عَلَيَّ ٱلْقِصَّةَ مُفَصَّلَةً، لأَرَى فِيها رَأْيي مِنْ جَدِيدٍ، وَأُصْدِرَ حُكْمِي عَنْ بَصِيرَةٍ وَبَيِّنَةٍ».

* * *

وَلَمْ يَكُنْ ٱلْوالِي كَمِيشٌ ـ كَما تَعْلَمُ وَيَعْلَمُ ٱلنَّاسُ جَمِيعاً ـ يَخْجَلُ مِنْ شَيْءٍ.

وَلكِنَّهُ حِينَ رَأَىٰ شُهُودَ هَذِهِ ٱلْقَضِيَّةِ مِنَ ٱلنَّاسِ يَتغَامَزُونَ بِهِ ـ وَفِيهِمْ جَماعَةٌ مِنْ عِلْيَةِ ٱلْقَوْمِ ـ خَشِيَ أَنْ يَرْفَعُوا قِصَّتَهُ إِلَى أَمِيرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ، فَيَعْزِلَهُ عَنِ ٱلْوِلايَةِ.

وما أَسْرَعَ أَنْ تَكَلَّفَ كَمِيشٌ ٱلابْتِسامَ، مُتَظاهِراً بِأَنَّهُ يُدَاعِبُ وَيَمْزَحُ.

ثُمَّ أَذِنَ لِي بِٱلانْصِرافِ. فَٱنْصَرَفْتُ عَلَى ٱلْفَوْرِ، ناجِياً مِمّا عَوَّدَنَاهُ مِنْ فُنُونِ ٱلْعَسْفِ وَٱلْجَوْرِ.

* * *



خاتِمَةُ ٱلْقِصَّةِ

الْجَزاءُ الْعادِلُ

فَلْتَرْضَ - يا صاحِبي - بِهذا ٱلْجَزاءِ ٱلْعادِلِ. فَما ظَلَمَ رَأْسُ ٱلْوَزَّةِ مُعَلِّمَهُ وَلا غَبَنَ (أَيْ: لَمْ يَغْلِبْهُ وَلَمْ يَخْدَعْهُ)، وَلا حَقَدَ عَلَيْهِ ولا ضَغِنَ (أَيْ: لَمْ يُضْمِرْ لهُ في نَفْسِهِ عَداوَةً). ولكِنَّكَ بِتِلْكَ ٱلْمَشُورَةِ لَمْ تَرَ فِي ظُلْمِ غَيْرِكَ مِنْ بَأْسٍ، فَظَلَمْتَ نَفْسَكَ فِيمَنْ ظَلَمْتَ مِنَ ٱلنَّاسِ.

فَلا تَجْزَعَنْ مِنْ سُنَّةٍ سَنَنْتَها، وَخُطَّةٍ نَهَجْتَها. وَلَكَ أَسْوَةٌ سَيِّئَةٌ فِي شَبِيهٍ لَكَ - يا صاحِبي - قَدِيمٍ، حادَ عَنِ ٱلنَّهْجِ الْقَوِيمِ، فَلَمَّا عامَلَهُ ٱبْنُ عَمِّهِ بِمِثْلِ خُطَّتِهِ، وَكافَأَهُ - عَلَى غَدْرِهِ - مِنْ جِنْسِ مُكافَأَتِهِ، صَرَخَ - كَما صَرَخْتَ - باكِياً مُعْوِلاً، وَصَيَّحَ - كَما صَيَّحْتَ - شاكِياً مُوَلْوِلاً.

وَإِنِّي قاصٌ عَلَيْكَ نَبأَ ذلِكَ ٱلشَّبيهِ، لَعَلَّكَ واجِدٌ في قِصَّتِهِ بَعْضَ ٱلْعَزاءِ (أَيْ: ٱلصَّبْرِ ٱلْحَسَنِ) والتَّرْفِيهِ (أَيْ: ٱلرَّاحَةِ وَٱلتَّخْفِيفِ)».

* * *

فَقالَ لِي وَقَدِ ٱسْتَيْقَظَ ضَمِيرُهُ، وَٱسْتَقامَ تَفكِيرُهُ وَتَدْبِيرُهُ، وَبانَ (أَيْ: ظَهَرَ) لَهُ طَرِيقُ ٱلصَّوابِ، فَٱرْعَوَى عَنْ باطِلِهِ وَأَنابَ (أَيْ: رَجَعَ عَنْهُ وَتابَ). وَٱنْفَرَجَتْ (أَيْ: ٱنْفَتَحَتْ وَٱنْكَشَفَتْ) أَسارِيرُهُ (أَيْ: خُطُوطُ جَبِينِهِ)، وَتَطَلَّقَ مُحَيَّاهُ (أَيْ: ٱنبَسَطَ وَجْهُهُ بَعْدَ ٱنْقِباضِهِ) وَظَهَرَتْ أَماراتُ ٱلْبِشْرِ عَلَىٰ سِيماهُ (أَيْ: بَدا ٱلسُّرُورُ عَلَىٰ هَيْئَتِهِ):

«هاتِ حَدِيثَكَ يا أَبا ٱلْغُصْنِ، فَما أَعْدَلَ قَضاءَكَ، وَأَصَحَّ آراءَكَ. لَقَدْ بَصَّرْتَنِي بِذَنْبِي، وَنَبَّهْتَنِي إِلَىٰ عَيْبِي، وَٱلْمَرْءُ لا يَرَىٰ عَيْبَ نَفْسِهِ، وَإِنْ رَأَىٰ عَيْبَ سِواهُ، وَٱلصَّاحِبُ لِصاحِبِهِ نِعْمَ ٱلمِرْآة.

فَما أَخْلَقَنِي بِأَنْ أَشْكُرَكَ عَلَىٰ أَنْ هَدَيْتَنِي ٱلصِّراطَ

(أَيْ: ٱلطَّرِيقَ) ٱلْمُسْتَقِيمَ، وَفَتَحْتَ عَيْنِي عَلَىٰ ٱلْمَسْلَكِ (أَيْ: ٱلْمَنْهَجِ) ٱلْقَوِيمِ».

فابْتَهَجْتُ لِرُجُوعِهِ عَنْ باطِلِهِ، وَإِنْصافِهِ مِنْ نَفْسِهِ بَعْدَ تَحامُلِهِ. فَقُلْتُ لَهُ مُتَلَطِّفاً، مُعاوِداً حَدِيثِي مُسْتَأْنِفاً:

لَقَدْ عاشَ فِي هٰذا ٱلْبَلَدِ ٱلَّذِي نَعِيشُ فِيهِ ـ قَبْلَ أَنْ نُولَدَ: أَنْتَ وَأَنا، فِي هذِهِ ٱلدُّنْيا ـ شَيْخٌ مِنَ ٱلسَّرَاةِ ٱلأَكْياسِ (أَيْ: ٱلأَشْرافِ ٱلْعُقَلاءِ)، ذائِعُ ٱلْفَضْلِ بَيْنَ ٱلنَّاس.

وَقَدْ عُرِفَ بِسَدادِ ٱلرَّأْيِ وَنَفاذِ ٱلْبَصَرِ، وَرِفْعَةِ ٱلْقَدْرِ وَجَلالَةِ ٱلْخَطَرِ (أَيْ: عِظَمِ ٱلشَّأْنِ).

وَكانَ ـ لِسُمُوِّ مَكانَتِهِ وَسَعَةِ حِيلَتِهِ ـ إِماماً لِقَوْمِهِ، وَزَعِيماً لِعَشِيرَتِهِ (أَيْ: رَئِيساً لِقَبِيلَتِهِ): تَلْجَأُ إِلَيْهِ، وَتَجْعَلُ مُعَوَّلَها ـ بَعْدَ ٱللَّهِ ـ عَلَيْهِ، وَتَلُوذُ بِكَنَفِهِ (أَيْ: تَجْعَلُهُ حِصْناً لَها)، إِذا أَلَمَّتْ بِها ٱلْحَوادِثُ، وَدَهِمَتْها (أَيْ: غَشِيَتْها وَغَطَّتْها) ٱلْخُطُوبُ وَٱلْكَوارِثُ. يَسْتَنِيرُ قَوْمُهُ

بِرَأْيِهِ، وَيَهْتَدُونَ بِهَدْيِهِ. وَيَفْتَقِدُونَهُ (أَيْ: يَطْلُبُونَهُ عِنْدَ غَيْبَتِهِ) فِي ٱلْمُلِمّاتِ (أَيْ: ٱلنَّكَباتِ وٱلْمَصائِبِ)، كَما يَفْتَقِدُونَ ٱلْبَدْرَ فِي لَيْلَةِ ٱلْمُحاقِ (وَهِيَ آخِرُ لَيالِي ٱلشَّهْرِ ٱلْعَرَبِيّ)، فَيُشِيرُ عَلَيْهِمْ بِأَحْسَنَ مِمَّا أَشَرْتَ عَلَى رأْسِ الْوَزَّةِ: أَبِي إِسْحاقَ.

فَلا غَرْوَ (أَيْ: فَلا عَجَبَ) إِذا ٱسْتَطْلَعَتْ قَبِيلَتُهُ رَأْيَهُ، كُلَّما تَعَقَّدَتْ أُمُورُها، وَضاقَتْ - بِحادِثاتِ ٱلدَّهْرِ - صُدُورُها.

وَلاَ غَرابَةَ إِذا راحَتْ تُنْهِي إِلَيْهِ أَمْرَها (أَيْ: تُعْلِمُهُ بِهِ)، وَتَبُثُّهُ سِرَّها وَجَهْرَها (أَيْ: تُطْلِعُهُ عَلَيهِما وَتُكاشِفُهُ بِهِما)، لِيُشِيرَ عَلَيْها بِوَسِيلَةِ ٱلنَّجاةِ، فَيَكُونَ رَأْيُهُ ٱلثَّاقِبُ - كَما كَانَ رَأْيُكَ ٱلنَّفّاذُ لِعارِفِيكَ دائِماً - مِصْباحاً يُنِيرُ ٱلطَّرِيقَ وَمِشْكاةً.

* * *

وذَاتَ يَوْمٍ دَفَعَتْهُ ٱلأَنانِيَّةُ كَما دَفَعَتْكَ، وَأَضَلَّتْ

رَأْيَهُ كَما أَضَلَّتْكَ، فَزَلَّتْ قَدَمُهُ (أَيْ: زَلِقَتْ) كَما زَلَلْتَ، وَسَلَكَ مِنْ طَرِيقِ ٱلْغَوايَةِ (أَيْ: ٱلضَّلالِ) مِثْلَ ما سَلَكْتَ.

فَتَنَكَّبَ عَنْ سَبِيلِ ٱلسَّدادِ (أَيْ: مالَ عَنْ طَرِيقِ ٱلاسْتِقامَةِ)، وَحادَ عَنْ سَنَنِ ٱلرَّشادِ، وَسَلَكَ - مَعَ ابْنِ عَمِّهِ - طَرِيقاً عَوْجَاءَ غادِرَةً، وَٱرْتَضَىٰ لِنَفْسِهِ - فِي مُعامَلَتِهِ - خُطَّةً (أَيْ: طَرِيقَةً) مُلْتَوِيَةً ماكِرَةً. فَلَمْ يَرْعَ (أَيْ: لَمْ يَحْفَظْ) واجِبَ ٱلأَمانَةِ، مُؤْثِراً (أَيْ: مُخْتاراً وَمُفَضِّلاً) ٱلتَّفْرِيطَ وَٱلاسْتِهانَةَ.

فَعامَلَهُ ابْنُ عَمِّهِ بِمِثْلِ فِعْلِهِ، وَكافَأَهُ عَلَى غَدْرِهِ وَخِيانَتِهِ مِنْ جِنْسِ عَمَلِهِ.

* * *

فَصَرَخَ ٱلسَّيِّدُ ٱلْعَظِيمُ كَما صَرَخْتَ، وَصَيَّحَ كَما صَيَّحْتَ، وَراحَ يَسُبُّ ٱلْغَدْرَ وَٱلْغادِرِينَ (أَيْ: يَشْتُمُهُمْ شَتْماً وَجِيعاً)، وَيَلْعَنُ ٱلأَنانِيَّةَ وَٱلأَنانِيِّينَ، وَيَثُورُ عَلَىٰ لُؤْمِ

ٱلنَّاسِ، وَيَرْمِيهِمْ (أَيْ: يَتَّهِمُهُمْ وَيَعِيبُهُمْ) بِٱلنَّقائِصِ وَٱلأَرْجاسِ (أَيْ: ٱلْقَبائِحِ).

* * *

فَأَعْرَضَ (أَيْ: صَدَّ وَمالَ) عَنْهُ صاحِبُهُ مُسْتَكْبِراً وَأَجابَهُ مُزْدَرِياً مُحْتَقِراً، وَأَغْلَظَ لَهُ ٱلْمَقالَ، وَقالَ لَهُ فِيما قالَ:

وَكُنْتَ إِماماً لِلْعَشِيرَةِ، تَنْتَهِي
إِلَيْكَ، إِذا ضاقَتْ بِأَمْرٍ صُدُورُها

فَلا تَجْزَعَنْ مِنْ سِيرَةٍ، أَنْتَ سِرْتَها،
فَأَوَّلُ راضٍ سُنَّةً مَنْ يَسِيرُها



هَـــوِّنْ عَلَيْكَ

«قالَ أَبُو ٱلْغُصْنِ عَبْدُ ٱللَّهِ جُحا:

١ ـ مَذْهَبِي ـ فِي ٱلْـحَياةِ ـ صَبْرٌ جَمِيلُ
هَـلْ يُـنَـجِّـي مِـنَ ٱلْـبَلاءِ عَـوِيـلُ

الشَّرْحُ

١ ـ لِي فِي ٱلْحَياةِ طَرِيقَةٌ أَسِيرُ عَلَيْها، وَهِيَ أَنْ أُلاقِيَ ما يُصِيبُنِي بِهِ ٱلزَّمَنُ بِصَبْرٍ وَٱحْتِمالٍ، فَلا أَفْزَعَ مِنْ حادِثَةٍ، وَلا أَجْزَعَ لِمُصِيبَةٍ، وَلا أَرْفَعَ صَوْتِي بِٱلْبِكاءِ وَٱلصِّياحِ. وَهَلْ يُفِيدُ ٱلْعَوِيلُ شَيْئاً، أَوْ يُغْنِي ٱلْبُكاءُ فَتِيلاً؟ وَهَلْ يُخَلِّصُنِي ٱلأَسَفُ وَٱلشَّكْوَى مِمَّا يَنْتابُنِي مِنْ حَوادِثِ ٱلأَيَّامِ؟

٢ ـ لَمْ أَضِقْ بِٱلْحَياةِ ذَرْعاً، وَعِنْدِي
بَسَماتٌ لِلْخَطْبِ، وَهْوَ جَلِيلُ

٣ ـ لا أَرَىٰ ـ في ٱلْوُجُودِ ـ إلاَّ جَمالاً،
كُلُّ ما فِي ٱلْوُجُودِ حُسْنٌ أَصِيلُ

٤ ـ أُضْمِرُ ٱلصَّفْحَ وَٱلْمَحَبَّةَ لِلنَّا
سِ، إذا ما أَساءَ باغٍ جَهُولُ

---

٢ ـ إِنَّنِي لا أَتَبَرَّمُ بِٱلْحَياةِ، وَلا أَجِدُ فِي نَفْسِي ضِيقاً بِما تَنالُنِي بِهِ ٱلأَحْداثُ. فَإِذا نابَتْنِي مُصِيبَةٌ ـ وَإِنْ كانَتْ جَلِيلَةً ـ قابَلْتُها بِٱبْتِسامَةِ رِضاً وَٱحْتِمالٍ، فَتَرانِي مُفْتَرَّ ٱلثَّغْرِ، باسِمَ ٱلْوَجْهِ، مَهْما يَكُنْ مِنْ أَمْرٍ.

٣ ـ وَإِنَّ عَيْنِي لَتَرَىٰ هَذا ٱلْكَوْنَ مَمْلُوءًا بِأَلْوانِ ٱلْجَمالِ فِي كُلِّ شَيْءٍ. فَكُلُّ مَا حَواهُ ٱلْكَوْنُ حَسَنٌ حَقًّا، يَفْتِنُ ٱلأَنْظارَ، وَيَخْلُبُ ٱلأَلْبابَ.

٤ ـ وَإِنَّ قَلْبِي عامِرٌ بِٱلْحُبِّ وَٱلْمَوَدَّةِ وَٱلْمَيْلِ إِلَىٰ ٱلنَّاسِ وَٱلتَّجاوُزِ عَنْ إِساءَةِ بَعْضِهِمْ إِلَيَّ. فَإِذا نالَنِي بِٱلشَّرِّ

٥ ـ ٱلأَمَـانِـيُّ ـ عَـذْبَـةٌ ـ أَسْـعَـدَتْـنِـي،
فَـحَـيـاتِـي بِـهِـنَّ حُـلْـمٌ جَـمِـيـلُ

٦ ـ وَحَـماقـاتُ مَـنْ أَرَىٰ أَضْـحَـكَـتْـنِـي
وَتَـعَـنَّـىٰ بِـهـا غَـضُـوبٌ مَـلُـولُ

مُعْتَدٍ أَحْمَقُ، غَفَرْتُ لَهُ إِساءَتَهُ، وَطَوَيْتُ لَهُ فِي أَعْماقِ نَفْسِي صَفْحاً جَمِيلاً.

٥ ـ وَإِنَّ ٱلآمالَ ـ ٱلَّتِي أَتَصَوَّرُها وَأَنْتَظِرُ تَحْقِيقَها ـ آمالٌ حُلْوَةٌ، تُسْعِدُ نَفْسِي، وَتُشْعِرُنِي بِٱلْمَسَرَّةِ وَٱلْغِبْطَةِ. وَكأَنِّي ـ حِينَ أَتَخَيَّلُ هَذِهِ ٱلامالَ وَأَتَمَثَّلُها ـ أَعِيشُ فِي حُلْمٍ جَمِيلٍ بَهِيٍّ، مِنْ أَحْلامِ ٱلنَّوْمِ ٱلْهَنِيِّ.

٦ ـ وَمِمَّا يُضْحِكُنِي أَنْ أَرَىٰ بَعْضَ ٱلنَّاسِ يُسْرِعُ إِلَيْهِ ٱلْغَضَبُ، وَيُدْرِكُهُ ٱلْمَلَلُ وَٱلضَّجَرُ، فَإِذا بِه يُؤْذِي غَيْرَهُ أَوْ يَسُبُّهُ وَيَشْتُمُهُ. وَهذا طَيْشٌ وَحُمْقٌ وَضَعْفُ عَقْلٍ يَبْعَثُ عَلَىٰ ٱلضَّحِكِ.

٧ ـ إِنَّما يَغْلِبُ ٱلزَّمانَ صَبُورٌ
واسِعُ ٱلصَّدْرِ، باسِمٌ، بُهْلُولُ

٨ ـ لا يَهابُ ٱلْخُطُوبَ ـ إِنْ دَهِمَتْهُ ـ
سَوْفَ يَتْلُو ٱلأَحْزانَ أُنْسٌ طَوِيلُ

---

٧ ـ وَلَيْسَ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ أَنْ يَحْتَمِلَ مَرارَةَ ٱلأَيَّامِ، وَيَتَغَلَّبَ عَلَىٰ شَدائِدِ ٱلزَّمَنِ، إِلاَّ إِذا كانَ قَوِيَّ ٱلصَّبْرِ، واسِعَ ٱلصَّدْرِ، مُفْتَرَّ ٱلثَّغْرِ. فَتَراهُ ثابِتاً رَزِيناً حَلِيماً، كَما تَراهُ طَيِّبَ ٱلنَّفْسِ فَكِهاً ضَحُوكاً.

٨ ـ وَٱلْقادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَغْلِبَ ٱلزَّمانَ هُوَ مَنْ لا يَخافُ ٱلْمَصائِبَ حِينَ تُفاجِئُهُ، إِذْ يَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ عُسْرٍ سَيَنْتَهِي إِلَىٰ يُسْرٍ، وَأَنَّ كُلَّ شِدَّةٍ سَيَعْقُبُها لِينٌ، وَأَنَّ ٱلْحُزْنَ ـ وَإِنْ تَكاثَرَ ـ سَيَعْقُبُهُ سُرُورٌ وَإِيناسٌ.

٩ ـ كُلُّ خَطْبٍ ـ إذا صَبَرْتَ ـ تَوَلَّىٰ

وَتَجَلَّىٰ، وَكُلُّ حالٍ تَحُولُ

❋❋❋

---

٩ ـ وَمَتَىٰ لَجَأَ ٱلْمَحْزُونُ إِلَىٰ ٱلصَّبْرِ، فَإِنَّ مُصِيبَتَهُ تَخِفُّ وَتَهُونُ، ثُمَّ تَمْضِي وَتَزُولُ، لأَنَّهُ لَيْسَ هُناكَ شَيْءٌ يَدُومُ فِي هذِهِ ٱلْحَياةِ، وَكُلُّ شَيْءٍ يَتَغَيَّرُ. وَما مِنْ حالٍ إِلاَّ تَبَدَّلَتْ، وَما مِنْ كُرْبَةٍ إِلاَّ تَحَوَّلَتْ. فَلْيَنْتَظِرِ ٱلْمَحْزُونُ حالاً غَيْرَ حالِهِ، وَلْيَتَوَقَّعْ ـ فِي ٱلْقَرِيبِ ٱلْعاجِلِ ـ أُنْسَ نَفْسِهِ وَهُدُوءَ بالِهِ.

ٱلْقِصَّةُ ٱلرَّابِعَةُ

ٱلْغُرَابُ ٱلطَّائِرُ



ٱلْفَصْلُ ٱلْأَوَّلُ

١ ـ سَمِعْتُهُ مِنْ فُلانٍ

قَالَ أَبُو ٱلْغُصْنِ: عَبْدُ ٱللَّهِ جُحَا: سَمِعْتُ ـ ذَاتَ يَوْمٍ ـ شائِعَةً غَرِيبَةً، خُلاصَتُها أَنَّ رَجُلاً ـ فِي أَقْصَى ٱلْمَدِينَةِ ـ وَلَدَتْ لَهُ زَوْجُهُ غُراباً، وَأَنَّ هَذا ٱلْغُرابُ لَمْ يَلْبَثْ أَنْ طارَ، وَغابَ عَنِ ٱلأَنْظارِ.

فَسَأَلْتُ مُخْبِرِي عَمَّنْ حَدَّثَهُ بِذَلِكَ فَقالَ: «سَمِعْتُهُ مِنْ فُلانٍ».

٢ ـ مِنْ فُلانٍ إِلَى فُلانٍ

فَذَهَبْتُ إِلَىٰ فُلانٍ أَسْأَلُهُ، فَقالَ:

«لَقَدْ رَوَيْتُ لِصاحِبِي هذا ٱلْخَبَرَ، وَلكِنِّي لَمْ أَقُلْ: إِنَّ الْغُرابَ طارَ، بَلْ قُلْتُ: إِنَّهُ مَشَى وَسارَ».

فَسَأَلْتُهُ عَمَّنْ أَخْبَرَهُ بِذلِكَ.

فَقالَ: «فُلانٌ».

فَلَمَّا سَأَلْتُ فُلاناً، أَخْبَرَنِي أَنَّ ٱلْغُرابَ لَمْ يَسِرْ وَلَمْ يَطِرْ، بَلْ وَقَفَ ساكِناً لا يَتَحَرَّكُ، ثُمَّ ماتَ بَعْدَ قَلِيلٍ.

٣ ـ تناقُضُ الْخَبَرِ

وَسَأَلْتُ هَذا ٱلْفُلانَ عَمَّنْ أَخْبَرَهُ بِذلِكَ، فَسَمَّاهُ لِي.

وَما زِلْتُ أَتَقَصَّى هذِهِ ٱلشَّائِعَةَ، وَأَتَتَبَّعُ مَصادِرَها، وَأَسْأَلُ الْمُحَدِّثِينَ بِها ـ مِنْ رُواتِها وَنَقَلَتِها ـ واحِداً بَعْدَ آخَرَ، وَأَنا شَدِيدُ ٱلْعَجَبِ مِنْ تَضارُبِ مَا أَسْمَعُهُ مِنَ ٱلأَخْبارِ وَٱخْتِلافِها وَتَناقُضِها:

* * *

فَهَذا يُخْبِرُنِي أَنَّهُ سَمِعَ أَنَّ صاحِبَنا لَمْ يَلِدْ غُراباً، بَلْ طائِراً يُشْبِهُ ٱلْغُرابَ.

* * *

وَهَذا يُخْبِرُنِي: أَنَّهُ لَيْسَ غُراباً، وَلا طائِراً يُشْبِهُ ٱلْغُرابَ، بَلْ إِنْساناً لَهُ وَجْهُ غُرابٍ.

* * *

وثالِثٌ يَقُولُ: بَلْ هُوَ غُرابٌ لَهُ وَجْهُ إِنْسانٍ، قَدْ رُكِّبَ عَلَىٰ جِسْمِ غُرابٍ.

٤ ـ فِي بَيتِ أَبي الْفَضْلِ

وَما زالَ ٱلْخَبَرُ يَخْتَلِفُ وَيَتَناقَضُ، كُلَّما تَتَبَّعْتُهُ وَقَرُبْتُ مِنْ مَصْدَرِهِ، حَتَّى ٱهْتَدَيْتُ ـ آخِرَ ٱلأَمْرِ ـ إِلَى صاحِبِ ٱلْقِصَّةِ نَفْسِهِ.

وَإِذا هُوَ صَدِيقٌ لِي قَدِيمٌ، يُدْعَى: أَبا الْفَضْلِ إِبْراهِيمَ.

فَأَسْرَعْتُ إِلَىٰ بَيْتِهِ، فَرَأَيْتُهُ في جَماعَةٍ مِنْ أَصْحابِهِ يَسْمُرُونَ، أَعْنِي: يَتَحَدَّثُونَ لَيْلاً.

٥ ـ شَهادَةُ أَبي حَمَّادٍ

وَلَمْ أَكَدْ أُخْبِرُ أَبا ٱلْفَضْلِ بِما سَمِعْتُهُ، وَأَسْأَلُهُ عَنْ حَقِيقَةِ ٱلأَمْرِ، حَتَّى أَغْرَقَ في ٱلضَّحِكِ، مُتَعَجِّباً مِنْ وَلُوعِ ٱلنَّاسِ وَشَغَفِهِمْ بِتَحْرِيفِ ٱلأَخْبارِ.

ثُمَّ ٱلْتَفَتَ أَبُو ٱلْفَضْلِ إِلَى أَحَدِ ٱلْجالِسِينَ، وَقالَ لَهُ:

«بِرَبِّكَ يا أَبا حَمَّادٍ إِلاَّ ما أَجَبْتَ أَبا ٱلْغُصْنِ عَنْ سُؤالِهِ!».

٦ ـ عُمْرُ الْغُرابِ

فَٱلْتَفَتَ إِلَيَّ أَبُو حَمَّادٍ مُتَعَجِّباً، وَقالَ لِي مُبْتَسِماً:

«لَقَدْ أَخْبَرَنِي صاحِبِي أَبُو ٱلْفَضْلِ هذا ـ مُنْذُ أَيَّامٍ ـ أَنَّ زَوْجَهُ قَدْ وَضَعَتْ مَوْلُوداً ظَرِيفاً، وَأَنَّهُ سَمَّاهُ خالِداً، مُتَيَمِّناً بِهذا ٱلاسْمِ، مُتَفائِلاً لَهُ بِطُولِ ٱلْعُمْرِ».

فَقالَ أَحَدُ ٱلْحاضِرِينَ: «سَيَعِيشُ وَلَدُكَ خالِدٌ ـ إِنْ شاءَ اللَّهُ ـ عُمْراً طَوِيلاً، كَعُمْرِ ٱلْغُرابِ».

فَقُلْتُ لِـ أَبِي ٱلْفَضْلِ، أُداعِبُهُ وَأُمازِحُهُ:

«وَسَيَمُدُّ ٱللَّهُ فِي عُمْرِ هذا ٱلْغُرابِ، حَتَّىٰ يَكُونَ أَطْوَلَ ٱلْغِرْبانِ عُمْراً».

٧ ـ آفَةُ الأَخْبارِ

ثُمَّ أَطْرَقَ أَبُو حَمَّادٍ زَمَناً قَلِيلاً، وَٱسْتَأْنَفَ حَدِيثَهُ قائِلاً:

«ذٰلِكَ ـ يا صاحِبِي ـ هُوَ كُلُّ ما قُلْتُهُ. ولَمْ أَفُهْ بِغَيْرِهِ، وَلا نَطَقْتُ بِسِواهُ قَطُّ. وَما أَدْرِي: كَيْفَ شَوَّهَ ٱلنَّاسُ هٰذِهِ ٱلدُّعابَةَ ـ يا أَبا ٱلْغُصْنِ ـ وَكَيْفَ تَفَنَّنُوا في نَقْلِها وَتَصَرَّفُوا، وَغَيَّرُوا في رِوايَتِها وَحَرَّفُوا؟

وَما زالَ ٱلنَّاسُ يَتَزَيَّدُونَ فِي هٰذِهِ ٱلدُّعابَةِ ـ واحِداً بَعْدَ آخَرَ ـ حَتَّى زَعَمَ ٱلزَّاعِمُونَ: أَنَّ صاحِبَنا قَدْ وَلَدَ غُراباً كَما سَمِعْتَ.

ثُمَّ ماذا؟

ثُمَّ لَمْ يَلْبَثِ ٱلْغُرابُ أَنْ طارَ، وَغابَ عَنِ ٱلأَبْصارِ...».

* * *

وَهُنا ٱسْتَغْرَبَ أَبُو حَمّادٍ، أَعْنِي: بالَغَ فِي ٱلضَّحِكِ.

ثُمَّ قالَ لِي، وَهُوَ يَضْرِبُ كَفًّا بِكَفٍّ، مِنْ فَرْطِ الدَّهْشَةِ، وَشِدَّةِ ٱلْعَجَبِ:

«هُمُ نَقَلُوا ـ عَنِّي ـ ٱلَّذِي لَمْ أَفُهْ بِهِ،
وَمــا آفَــةُ ٱلأَخْــبارِ إِلاَّ رُواتُــهــا»



الفصل الثاني

١ ـ فُنُونٌ مِنَ الْقَوْلِ

وَكَأَنَّما أَتاحَتْ (أَيْ: هَيَّأَتْ) هذِهِ ٱلْقِصَّةُ ٱلْعَجِيبَةُ إِلَى سامِعِيها فُنُوناً كَثِيرَةً مِنَ ٱلْمُلَحِ وَٱلدُّعاباتِ، وَأَلْواناً بَدِيعَةً مِنَ ٱلنَّوادِرِ وَٱلْفُكاهاتِ، فَراحَ كُلُّ واحِدٍ مِنْهُمْ يُعَلِّقُ عَلَيْها بِما يَحْضُرُهُ مِنْ ٱلطَّرائِفِ، وَيَعِنُّ لَهُ مِنَ ٱللَّطائِفِ.

٢ ـ حَدِيثُ الْمُوَسْوِسِ

وَكانَ أَعْجَبَ ما سَمِعْناهُ ـ فِي هذِهِ ٱللَّيْلَةِ ـ حَدِيثُ أَبِي عَلِيٍّ ٱلْمُوَسْوِسِ. قالَ:

«سَمِعْتُ ـ فِي بَعْضِ أَسْفارِي ـ أَنَّ رَجُلاً كانَ يَعِيشُ فِي مَدِينَةِ واسِطٍ. يُدْعَى أَبا عُثْمانَ ٱلضَّاحِكَ، جَمَعَهُ ـ ذاتَ لَيْلَةٍ ـ مَجْلِسٌ حاشِدٌ كَمَجْلِسِنا هذا. وَكانَ مَدارَ ٱلْحَدِيثِ فِيهِ غَباوَةُ ٱلنَّاسِ وَفُضُولُهُمْ، وَما جُبِلَ عَلَيْهِ ٱلْكَثِيرُونَ مِنْهُمْ مِنْ نِفاقٍ وَغَدْرٍ، وَما رُكِّبَ فِي

طَبائِعِهِمْ مِنْ ضِيقٍ بِحَمْلِ ٱلسِّرِّ، وَعَجْزٍ عَنِ ٱلاحْتِفاظِ بِهِ. وَكَيْفَ يَتَلَقَّفُونَ ما يَسْمَعونَ مِنْ أَخْبارٍ بِٱلتَّسْلِيمِ وَٱلتَّصْدِيقِ، بِغَيْرِ مُناقَشَةٍ، وَلا تَحْقِيقٍ، كَمَا تَتَلَقَّفُ ٱلْبَبَّغاءُ ما تَسْمَعُهُ مِنْ قَوْلٍ، بِلا فَهْمٍ وَلا عَقْلٍ.

٣ ـ فِي مُنْتَصَفِ اللَّيلِ

وَكانَ الضَّاحِكُ شَدِيدَ ٱلْوُثُوقِ بِصاحِبٍ لَهُ يُدْعَىٰ أَبا ٱلْحُسَيْنِ ٱلصَّامِتَ. فَكانَ يَعُدُّهُ مَضْرِبَ ٱلأَمْثالِ، فِي ٱلْوَفاءِ بِٱلْعَهْدِ، وَٱلْمُحافَظَةِ عَلَى كِتْمانِ ما يُسْتَوْدَعُ مِنْ سِرٍّ.

فَلَمْ يَكَدِ ٱلْمَجْلِسُ يَنْفَضُّ، حَتَّى خَطَرَ لِـ أَبِي عُثْمانَ ٱلضَّاحِكِ أَنْ يَمْتَحِنَ صاحِبَهُ أَبا ٱلْحُسَيْنِ ٱلصَّامِتَ، وَيَرَى مَبْلَغَ قُدْرَتِهِ عَلَى ٱلاحْتِفاظِ بِٱلسِّرِّ، وَهُوَ عَلَى ثِقَةٍ تامَّةٍ أَنَّ صاحِبَهُ لَنْ يُخْفِقَ فِي ٱلامْتِحانِ.

فَذَهَبَ إِلَيْهِ، وَطَرَقَ بابَهُ. وَكانَ ٱللَّيْلُ قَدِ ٱنْتَصَفَ ـ أَوْ كادَ ـ فَٱسْتَيْقَظَ ٱلصَّامِتُ مِنْ نَوْمِهِ، وَسَأَلَ صاحِبَهُ عَمّا أَهَمَّهُ مِنْ خَطْبٍ (أَيْ: عَمَّا شَغَلَ بالَهُ مِنْ أَمْرٍ).

٤ ـ بَيْنَ الضَّاحِكِ والصَّامِتِ

فَتَظاهَرَ ٱلضَّاحِكُ بِٱلارْتِباكِ. ثُمَّ قالَ لِصاحِبِهِ ٱلصَّامِتِ فِي تَرَدُّد مُتَكَلَّفٍ، وَحَيْرَةٍ مُتَصَنَّعَةٍ:

«لَدَيَّ سِرٌّ خَطِيرٌ لَمْ أَجِدْ ـ في ٱلدُّنْيا كُلِّها ـ أَحَداً غَيْرَكَ أَسْتَوْدِعُهُ إِيَّاهُ، وَأَسْتَأْمِنُهُ عَلَيْهِ».

فَقالَ لَهُ ٱلصَّامِتُ مُتَعَجِّباً:

«قُلْ ما تَشاءُ، فَلَيْسَ أَحْفَظَ للسِّرِّ مِنِّي» (أَيْ: أَشَدَّ احْتِفاظاً بِهِ وَكِتْماناً لَهُ).

فَقالَ ٱلضَّاحِكُ:

«ذلِكَ عِنْدِي بِمَنْزِلَةِ ٱلْيَقِينِ. وَلكِنِّي أَخْشَى أَنْ تَدْفَعَكَ غَرابَةُ ما تَسْمَعُ إِلَى الإِفْضاءِ بِهِ (أَيْ: نَقْلِهِ وَٱلْبَوْح بِهِ) لِبَعْضِ مَنْ تَثِقُ بِإِخائِهِ وَمَوَدَّتِهِ ـ مِنْ خُلَصائِكَ وَأَصْفِيائِكَ ـ فَيَذِيعَ ٱلْخَبَرُ، وَيَفْتَضِحَ ٱلسِّرُّ».

فَقالَ ٱلصَّامِتُ:

«قُلْ مَا بَدا لَكَ، فَلَنْ يَنْتَقِلَ سِرُّكَ مِنْ صَدْرِي إِلَى كائِنٍ كانَ، مِنَ ٱلإِنْسِ وَٱلْجانِّ».

فَقالَ الضَّاحِكُ:

«لَقَدْ وَضَعَتْ (أَيْ: وَلَدَتْ) زَوْجِي ٱلآنَ، عُصْفُوراً. فَخَيَّبَتْ هذِهِ ٱلْمُفاجَأَةُ ما كُنَّا نُعَلِّقُهُ عَلَىٰ مَوْلُودِها مِنْ أَمَلٍ، وٱسْتَوْلَى عَلَيْنا ٱلْحُزْنُ وَٱلْهَمُّ.

عَلَى أَنَّنا حَمِدْنا ٱللَّهَ عَلَىٰ أَنَّنا لَمْ نَدْعُ إِلَى تَوْلِيدِها قابِلَةً، (أَيْ: مُوَلِّدَةً) فَلَمْ يَعْرِفْ كُنْهَ بَلْوانا (أَيْ: لَمْ يَعْرِفْ حَقِيقَةَ مُصِيبَتِنا) أَحَدٌ.

وَقَدْ حَرَصْنا عَلَى أَنْ نَكْتُمَ ٱلْخَبَرَ عَنِ ٱلنَّاسِ حَتَّىٰ لا يَشْمَتَ بنا ٱلشَّامِتُونَ.

وَلكِنَّ صَدْرِي لَمْ يَلْبَثْ أَنْ ضاقَ بِما أَحْمِلُهُ مِنْ هَمٍّ، فَلَمْ أَجِدْ مَنْ يُفَرِّجُهُ غَيْرَكَ».

٥ ـ بَينَ الصَّامِتِ وَزَوجِهِ

فَراحَ صاحِبُهُ يُهَوِّنُ عَلَيْهِ وَيُسْلِيهِ، حَتَّىٰ آنَسَهُ وَأَزالَ وَحْشَتَهُ، وَفَرَّجَ كُرْبَتَهُ (أَيْ: أَذْهَبَ عَنْ نَفْسِهِ ٱلْهَمَّ وَٱلضِّيقَ).

ثُمَّ عادَ ٱلضَّاحِكُ إِلَىٰ بَيْتِهِ. وَراحَ ٱلصَّامِتُ يُفَكِّرُ فِيما قالَ صاحِبُهُ، فَٱضْطَرَبَ لِغَرابَتِهِ، وَٱشْتَغَلَ بالُهُ، وَضاقَ صَدْرُهُ بِما سَمِعَ، فَلَمْ يَطْرُقْ عَيْنَيْهِ ٱلنَّوْمُ.

وَرَأَتْ زَوْجُهُ عَلَىٰ أَسارِيرِهِ (أَيْ: خُطُوطِ جَبِينِهِ) دَلائِلَ ٱلْحَيْرَةِ وَٱلْهَمِّ، فَسَأَلَتْهُ عَمَّا أَفْضَىٰ بِهِ إِلَيْهِ صاحِبُهُ مِنْ نَبَإٍ أَزْعَجَهُ، وَأَقْلَقَ بالَهُ، وَأَقَضَّ مَضْجَعَهُ، وَأَطارَ نَوْمَهُ.

فَلَمْ يُجِبْها ٱلصَّامِتُ بِشَيْءٍ.

فَزادَ شَوْقُها إِلَىٰ سِرِّهِ، بِمِقْدارِ ما رَأَتْهُ مِنْ حِرْصِهِ عَلَىٰ كِتْمانِهِ وَٱلاحْتِفاظِ بِهِ. فَلَمَّا بَرِمَ بِإِلْحاحِها (أَيْ: ضاقَ بِهِ وَسَئِمَهُ)، قالَ لَها:

«إِنَّهُ سِرٌّ خَطِيرٌ يا عَزِيزَتِي. وَقَدِ ٱسْتَوْدَعَنِيهِ صاحِبِي، وَٱسْتَأْمَنَنِي عَلَيْهِ. وَلا سَبِيلَ إِلَى إِذاعَتِهِ بَعْدَ أَنْ عاهَدْتُهُ عَلَىٰ أَلاَّ أُفْضِيَ بِهِ إِلَىٰ أَحَدٍ».

فَقالَتْ لَهُ مُتَعَجِّبَةً:

«أَلِمِثْلِي يُقالُ مِثْلُ هذا ٱلْكَلامِ؟ أَتَشُكُّ فِي صِدْقِ مَوَدَّتِي؟ أَتَرْتابُ فِي أَمانَتِي؟ أَلا تَثِقُ بِأَنَّنِي أَحْفَظُ ٱلنِّساءِ لِلسِّرِّ؟».

قالَ: «بَلَىٰ! فَما شَكَكْتُ فِي ذٰلِكَ لَحْظَةً واحِدَةً، وَلا دارَ لِي شَيْءٌ مِمّا تَتَوَهَّمِينَ عَلَىٰ بالٍ! وَلٰكِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَدْفَعَكِ غَرابَةُ ما تَسْمَعِينَ، إِلَى ٱلإِفْضاءِ بِهِ إِلَىٰ بَعْضِ مَنْ تُخْلِدِينَ (أَيْ: تَرْكَنِينَ) إِلَيْهِ بِٱلثِّقَةِ - مِنْ صَواحِبِكِ وَجاراتِكِ - فَيَذِيعَ ٱلْخَبَرُ وَيَفْتَضِحَ ٱلسِّرُّ».

فَقالَتْ لَهُ:

«لا عُذْرَ لَكَ فِي مِثْلِ هذا ٱلظَّنِّ، بَعْدَ ما عَرَفْتَهُ وَخَبَرْتَهُ فِي أَخْلاقِي - مُنْذُ عَرَفْتَنِي إِلَىٰ ٱلْيَوْمِ - مِنَ ٱلْمُحافَظَةِ عَلَى ٱلْعَهْدِ، وَٱلْوَفاءِ بِٱلْوَعْدِ.

أَفْضِ إِلَيَّ بِدِخْلَتِكَ (أَيْ: أَخْبِرْنِي بِما تُخْفِيهِ فِي نَفْسِكَ)، فَلَنْ يَعْرِفَ كُنْهَ سِرِّكَ أَحَدٌ مِنَ ٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ».

فَأَفْضَىٰ إِلَيْها ٱلصَّامِتُ بِما سَمِعَهُ مِنْ صَدِيقِهِ ٱلضَّاحِكِ. ثُمَّ أَسْلَمَ عَيْنَيْهِ لِلْكَرَى (أَيْ: لِلنَّوْمِ) بَعْدَ أَنْ فَرَّجَ هَمَّهُ، وَأَرَاحَ صَدْرَهُ مِمَّا أَثْقَلَهُ، مِنْ سِرٍّ خَطِيرٍ.

٦ ـ جِيرانُ الصَّامِتِ

وَلَمْ يَكَدِ ٱلصَّامِتُ يَنامُ، حَتَّىٰ ضاقَ صَدْرُ زَوْجِهِ بِحَمْلِ ٱلسِّرِّ ٱلَّذِي أَفْضَىٰ بِهِ إِلَيْها زَوْجُها، كَما ضاقَ صَدْرُ زَوْجِها ـ مِنْ قَبْلُ ـ بِحَمْلِ ٱلسِّرِّ ٱلَّذِي أَفْضَىٰ بِهِ إِلَيْهِ صاحِبُهُ.

وَسُرْعانَ ما ذَهَبَتْ إِلَىٰ جارَةٍ لَها، تَطْرُقُ بابَها، وتُوقِظُها مِنْ لَذِيذِ نَوْمِها. ثُمَّ أَفْضَتْ إِلَيْها بِسِرِّها، بَعْدَ أَنْ أَخَذَتْ عَلَيْها ـ ما شاءَتْ مِنَ ٱلْعُهُودِ وَٱلْمَواثِيقِ ـ أَنْ تَكْتُمَهُ، وَتَحْتَفِظَ بِهِ.

فَأَخْبَرَتْها أَنَّ أَبا عُثْمانَ ٱلضَّاحِكَ قَدْ وَلَدَ عُصْفُوراً. ثُمَّ تَزَيَّدَتْ، فَقَالَتْ: «وَقَدْ أَسْماهُ غَنْدُوراً».

وَسُرْعانَ ما ذَهَبَتِ ٱلْجارَةُ إِلَى جارَتِها، تَطْرُقُ بابَها وَتُوقِظُها، وَتُفْضِي إِلَيْها بِٱلسِّرِّ، بَعْدَ أَنْ تَسْتَوْثِقَ مِنْ كِتْمانِها إِيَّاهُ.

ثُمَّ تَزِيدُ عَلَى ما سَمِعَتْهُ: «أَنَّهُ أَلْبَسَهُ طُرْطُوراً».

وَتَرُوحُ ٱلثَّالِثَةُ إِلَىٰ رابِعَةٍ، فَتَفْعَلُ كَما فَعَلَتْ صَواحِبُها.

ثُمَّ تَزِيدُ عَلَيْهِ: «أَنَّها رَأَتْ أَباهُ يَدُورُ بِهِ - فِي ٱلطُّرُقاتِ - فَرْحانَ مَسْرُوراً».

٧ ـ ذُيُوعُ الْخَبَرِ

وَلَمْ يَكَدِ ٱلضَّاحِكُ يَسْتَيْقِظُ مِنْ نَوْمِهِ، وَيَخْرُجُ لِبَعْضِ شَأْنِهِ فِي صباحِ يَوْمِهِ، حَتَّىٰ هالَهُ (أَيْ: أَفْزَعَهُ) ما سَمِعَ مِنْ أَفْواهِ ٱلنَّاسِ. فَقَدْ وَجَدَ ٱلْقِصَّةَ مَعْرُوفَةً شائِعَةً، مَرْوِيَّةً - عَلَىٰ كُلِّ لِسانٍ - ذائِعَةً. يَتَناقَلُها ٱلنَّاسُ مُتَنادِرِينَ

(أَيْ: يَتَفَكَّهُونَ وَيُنَكِّتُونَ)، وَيَتَحَدَّثُونَ بِها مُتَثَبِّتِينَ غَيْرَ مُرْتابِينَ (أَيْ: لا يَشُكُّونَ فِيها).

يَقُولُ مَنْ عَرَفَ لِمَنْ لَمْ يَعْرِفْ: «هَلِ ٱنْتَهَىٰ إِلَيْكَ نَبَأُ ٱلسَّيِّدِ ٱلضَّاحِكِ؟».

فَيَسْأَلُهُ صاحِبُهُ مُتَلَهِّفاً، شَيِّقاً إِلَىٰ سَماعِ ٱلْخَبَرِ مُتَشَوِّفاً:

«وَما خَطْبُهُ؟» فَيَقُولُ: «لَقَدْ وَلَدَ عُصْفُوراً، وَأَسْماهُ غَنْدُوراً، وَأَلْبَسَهُ طُرْطُوراً، وَأَقامَ لَهُ حَفْلاً مَشْهُوراً، وَراحَ يَطُوفُ بِهِ في ٱلطُّرُقاتِ مُبْتَهِجاً مَسْرُوراً».

وَهَكَذا عَرَفَ ٱلضَّاحِكُ مَبْلَغَ وَفاءِ صاحِبِهِ ٱلصَّامِتِ، وَأَدْرَكَ مَدَىٰ كِتْمانِهِ لِلأَسْرارِ، وَمِقْدارَ ٱحْتِفاظِهِ بِها.

وَقَدْ غابَ عَنْ ٱلصَّامِتِ ـ كَما غابَ عَنْ غَيْرِهِ مِنَ ٱلنَّاسِ ـ أَنَّ ٱلضَّاحِكَ لَمْ يَتَزَوَّجْ بَعْدُ، وَأَنَّهُ لَوْ كانَ مُتَزَوِّجاً، لَما جازَ لأَحَدٍ أَنْ يُصَدِّقَ أَنَّ زَوْجَهُ تَلِدُ عُصْفُوراً.

ٱلفَصلُ ٱلثَّالِثُ

١ ـ طائِرٌ بِغَيرِ جَناحَينِ

وَثَمَّ ٱلْتَفَتَ إِلَيَّ أَبُو جَعْفَرٍ ٱلْمَدَنِيُّ يُذَكِّرُنِي بِقِصَّةٍ وَقَعَتْ لِي فِي أَيَّامِ ٱلشَّبابِ، وَهِيَ مِنْ بَدِيعِ ما يُرْوَىٰ فِي هذا ٱلْبابِ.

وَراحَ أَبُو جَعْفَرٍ يَقُصُّها عَلَىٰ ٱلْحَاضِرِينَ ـ بِما وَهَبَهُ ٱللَّهُ مِنْ أُسْلُوبٍ مَرِحٍ (أَيْ: فَكِهٍ) ـ فَقالَ:

«سَمِعْنا ـ ذاتَ يَوْمٍ ـ أَنَّ صاحِبَنا أَبا ٱلْغُصْنِ هذا يَعْتَزِمُ أَنْ يَطِيرَ، فِي أَصِيلِ يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ، مِنْ فَوْقِ مِئْذَنَةِ مَسْجِدِنا ٱلْعالِيَةِ.

* * *

وَلَمْ يَكَدِ ٱلنَّبَأُ يَذِيعُ حَتَّىٰ تَوافَدَ ٱلنَّاسُ عَلَىٰ مَدِينَتِنا مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وَصَوْبٍ (أَيْ: مِنْ كُلِّ ناحِيَةٍ)، وَجاؤوا إِلَىٰ ٱلْكُوفَةِ، مِنْ جَمِيعِ ٱلأَقْطارِ، لِيَشْهَدُوا ذلِكُمُ ٱلْمَنْظَرَ ٱلْعُجابَ.

فَلَمَّا حَانَ ٱلْوَقْتُ، ٱجْتَمَعَ ٱلنَّاسُ أَمامَ مَسْجِدِ ٱلْكُوفَةِ، حَتَّىٰ ضاقَ بِهِمُ ٱلْمَيْدانُ ٱلْفَسِيحُ.

وَمَا أَنْسَ لا أَنْسَ أَبا ٱلْغُصْنِ، وَقَدْ وَقَفَ يُطِلُّ عَلَيْنا مِنْ أَعْلَىٰ ٱلْمِئْذَنَةِ، وَيَنْظُرُ إِلَيْنا هازِئاً مُتَعَجِّباً، وَيَمُدُّ ذِراعَيْهِ، مُلَوِّحاً بِهِما في ٱلْهَواءِ، ثُمَّ يُحَرِّكُ يَدَيْهِ - مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى - كأَنَّما يَتَهَيَّأُ للطَّيَرانِ. وَقَدْ خُيِّلَ إِلَىٰ ٱلنَّظَّارَةِ - وَأَنا مِنْهُمْ - أَنَّهُ جادٌّ فِيمَا يَفْعَلُ.

* * *

وَلَمَّا طالَ بِنا ٱلانْتِظارُ، ٱلْتَفَتَ إِلَيْنا ساخِراً، وَقالَ:

«كُنْتُ أَحْسَبُنِي - وَحْدِيَ - ٱلْمُتَفَرِّدَ بِٱلْجُنُونِ فِي هٰذَا ٱلْبَلَدِ. ثُمَّ تَبَيَّنَ لِي ٱلآنَ: أَنَّ كُلَّ مَنْ أَرَىٰ أَجَنُّ مِنِّي.

ذلِكُمْ بِأَنَّكُمْ تَنْخَدِعُونَ بِما لا أَنْخَدِعُ بِهِ، وَتُصَدِّقُونَ ما لا أُصَدِّقُهُ، وَتَتَخَيَّلُونَ ما لا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ: أَنَّهُ يَكُونُ. وَإِلاَّ فَخَبِّرُونِي أَيُّها ٱلْعُقَلاءُ! كَيْفَ

صَدَّقْتُمْ أَنَّ إنْساناً - مِثْلِي ومِثْلَكُمْ - يَسْتَطِيعُ أَنْ يَطِيرَ، بِغَيْرِ جَناحَيْنِ؟

خَبِّرُونِي، فَلَسْتُ أَدْرِي: كَيْفَ دارَ بِأَخْلادِكُمْ (أَيْ: في أَذْهانِكُم) أَنَّ مِثْلِي قادِرٌ عَلَىٰ ٱلإِتْيانِ بِٱلْمُحالِ، وَدَرْكِ ما لا يُنالُ؟ أَلَسْتُ آدَمِيّاً مِثْلَكُمْ؟

«فَكَيْفَ يَصِحُّ فِي ٱلأَذْهانِ أَنِّي
- عَلَىٰ إظْهارِ مُعْجِزَةٍ - قَدِيرُ
وَكَيْفَ يُصَدِّق ٱلْعُقَلاءُ زَعْمِي
- وَلَسْتُ بِطائِرٍ - أَنِّي أَطِيرُ»

❋❋❋

ٱلفَصْلُ ٱلرَّابِعُ

١ - الصَّيَّادُ وَالقُبَّرَةُ

وَلَمْ يَكَدْ صاحِبِي يُتِمُّ حَدِيثَهُ حَتَّىٰ ٱسْتَغْرَبَ ٱلْحاضِرُونَ (أَعْنِي: بالَغُوا في ٱلضَّحِكِ)، وَٱلْتَفَتُوا إِلَيَّ مَدْهُوشِينَ، وَقَدْ أُعْجِبُوا - بِهٰذِهِ ٱلْحِيلَةِ - أَيَّما إِعْجابٍ.

فَلَمَّا رَأَيْتُ ما ٱسْتَوْلَىٰ عَلَىٰ نُفُوسِ ٱلْقَوْمِ مِنْ بَهْجَةٍ وَحُبورٍ، شَعَرْتُ أَنَّ واجِبَ ٱلأَمانَةِ يَقْتَضِينِي (أَعْنِي: يُوجِبُ عَلَيَّ) أَنْ أَرُدَّ ٱلْحَقَّ إِلَى أَهْلِهِ، وَأَلاَّ أَنْتَحِلَ (أَيْ: أَنْسُبَ لِنَفْسِي) فَضْلاً، غَيْرِي بِهِ أَجْدَرُ وَأَخْلَقُ. فَلَمْ أَتَرَدَّدْ في الإِفْضاءِ إِلَيْهِمْ بِٱلْمَصْدَرِ ٱلَّذِي أَلْهَمَنِي هذِهِ ٱلْحِيلَةَ، حَتَّىٰ لاَ يَنْسُبوا ٱلْفَضْلَ إِلَىٰ غَيْرِ مُسْتَحِقِّهِ.

فَقُلْتُ لَهُمْ: «أَتَعْرِفُونَ أَنَّنِي ٱسْتَلْهَمْتُ هذِهِ ٱلدُّعابَةَ مِنْ قِصَّةٍ رَواها لِي أَبِي عَنْ قُبَّرَةٍ - فِي زَمَنِ ٱلطُّفُولَةِ - فَلَمْ أَنْسَها إِلَىٰ ٱلْيَوْمِ؟».

* * *

فَدَهِشَ ٱلْقَوْمُ مِمّا سَمِعُوا، وَراحُوا يَتَعَجَّلُونَنِي حَدِيثَ ٱلْقُبَّرَةِ مَشْغُوفِينَ.

فَقُلْتُ لَهُمْ:

حَدَّثَنِي أَبِي: أَنَّ رَجُلاً صادَ قُبَّرَةً، وٱلْقُبَّرَةُ: نَوْعٌ مِنْ أَنْواعِ ٱلْعَصافِيرِ، كَما تَعْلَمُونَ.

فَقالَتِ ٱلْقُبَّرَةُ: «ما تُرِيدُ أَنْ تَصْنَعَ بِي؟».

قالَ: «أَذْبَحُكِ وآكُلُكِ».

قالَتْ: «وَٱللَّهِ ما أُشْبعُ مِنْ جُوعٍ، ولا أَشْفِي مِنْ قَرَمٍ، أَعْنِي: أَنَّ شَغَفَكَ بِأَكْلِ ٱللَّحْمِ لَنْ يَهْدَأَ، وَشَوْقَكَ ٱلشَّدِيدَ إِلَيْهِ لَنْ يَشْفِيَهُ ما يَحْتَوِيهِ جِسْمِيَ ٱلضَّئِيلُ مِنْ لَحْمٍ قَلِيلٍ.

ولكِنِّي أُعَلِّمُكَ ثَلاثَ خِصالٍ، هِيَ خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَكْلِي:

أَمّا ٱلأُولىٰ، فَأُعَلِّمُكَ إِيَّاها وَأَنا فِي يَدِكَ.

وَأَمَّا ٱلثَّانِيَةُ، فَإِذا صِرْتُ عَلَى ٱلشَّجَرَةِ.

وَأَمّا ٱلثَّالِثَةُ، فَإِذا صِرْتُ عَلَى ٱلْجَبَلِ».

٢ ـ نَصِيحَتانِ

فَقالَ ٱلصَّيَّادُ: «هاتِي ٱلنَّصِيحَةَ الأُوْلَى».

قالَتْ: «لا تَلْهَفَنَّ (أَيْ: لا تَشْتَدَّ حَسْرَتُكَ) عَلَىٰ ما فاتَ».

فَخَلاَّها (أَيْ: تَرَكَها وَأَطْلَقَ سَرَاحَها).

* * *

فَلَمّا صارَتْ عَلَى ٱلشَّجَرَةِ، قال: «هاتِي ٱلثَّانِيَةَ».

قالَتْ: «لا تَحْسَبَنَّ ما لا يَكُونُ أَنَّهُ يَكُونُ».

* * *

وَما كادَتْ ٱلْقُبَّرَةُ تَطِيرُ عَنِ ٱلشَّجَرَةِ، حَتَّىٰ قالَتْ:

«يا شَقِيُّ! لَوْ ذَبَحْتَنِي لأَخْرَجْتَ مِنْ حَوْصَلَتِي دُرَّتَيْنِ، وَزْنُ كُلِّ واحِدَةٍ مِنْهُما ثلاثُونَ مِثْقالاً».

٣ ـ حَسْرَةُ الصَّيادِ

فَعَضَّ ٱلصَّيادُ عَلَىٰ يَدَيْهِ أَسَفاً.

وَتَلَهَّفَ (أَيْ: تَحَسَّرَ) عَلَى ما فاتَهُ ـ مِنْ خَيْرٍ ـ تَلَهُّفاً شَدِيداً.

وَلَمَّا اسْتَقَرَّتِ ٱلْقُبَّرَةُ عَلَىٰ ٱلْجَبَلِ، قالَ لَها ٱلصَّيَّادُ:

«هَاتِي النَّصِيحَةَ الثَّالِثَةَ».

فَقالَتْ ساخِرَةً:

«أَنْتَ قَدْ أُنْسِيتَ ٱلاثْنَتَيْنِ. فَما تَصْنَعُ بِٱلثَّالِثَةِ؟

أَلَمْ أَقُلْ لَكَ: لا تَلْهَفَنَّ عَلَىٰ ما فاتَ؟ وَقَدْ تَلَهَّفْتَ!

أَو لَمْ أَقُلْ لَكَ: لا تَحْسَبَنَّ ما لا يَكُونُ أَنَّهُ يَكُونُ؟

وأَنا: لَحْمِي، وَدَمِي، وَرِيشي، لا يَبْلُغُ وَزْنُنا جَمِيعاً عِشْرينَ مِثْقالاً؟

فَكَيْفَ صَدَّقْتَ أَنَّ فِي حَوْصَلَتِي دُرَّتَيْنِ: كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُما ثلاثُونَ مِثْقالاً؟».

ثُمَّ طارَتْ عَنِ ٱلْجَبَلِ، وَمَضَتْ فِي طَيَرانِها، فَلَمْ تَعُدْ تَرَاها ٱلْعُيُونُ!

❊❊❊



خاتِمَةُ ٱلْقِصَّةِ

نَصِيحَةُ الْقُبَّرَةِ

أَمَّا أَنا، فَلَمْ تَطِرْ - عَنْ خاطِرِي - نَصِيحَةُ ٱلْقُبَّرَةِ، وَلَمْ تَذْهَبْ سُدىٰ (أَيْ: ضَياعاً). بَلِ ٱسْتَقَرَّتْ فِي نَفْسِي - مُنْذُ سَمِعْتُها مِنْ أَبِي - فَلَمْ تُفْلِتْ مِنِّي إِلَىٰ ٱلْيَوْمِ.

وَكانَ لِهَذِهِ ٱلنَّصِيحَةِ - أَيُّها ٱلإِخْوانُ - أَثَرٌ كَبِيرٌ لا أَنْساهُ، وَفَضْلٌ عَظِيمٌ فِيما أَصَبْتُهُ مِنْ نَجاحٍ فِي هذِهِ ٱلْحَياةِ.

❋❋❋

- ١ -

الْغُرابُ الْغادِرُ

قالَ شِكِسْبِيرُ - شاعِرُ ٱلإِنْكِلِيزِ - في قِصَّةِ «ٱلْمَلِكِ لِير»:

قَد حَدَّثَتْنا أَقْدَمُ ٱلأَمْثالِ
فِيما مَضى مِنْ ٱلزَّمانِ ٱلْخالِي
بِقِصَّةٍ تُرْوَىٰ عَنِ ٱلْعُصْفُورِ
أَبْصَرَ فِي وَكْرٍ مِنَ ٱلْوُكُورِ
فَرْخَ غُرابٍ مُشْرِفاً عَلَىٰ ٱلتَّلَفْ،
فَقالَ لِلْفَرْخِ: «ٱطْمَئِنَّ لا تَخَفْ»
وَأَدْفَأَ ٱلْفَرْخَ، وَداواهُ، وَلَمْ
يَزَلْ بِهِ حَتَّىٰ شَفاهُ مِنْ أَلَمْ
وَصارَ عِنْدَهُ ٱلْعَزِيزَ ٱلْغالِي
وَأَكْرَمَ ٱلأَبْناءِ وَٱلْعِيالِ

حَـتَّـى إِذا ٱلْـفَـرْخُ غَـدا غُـرابـا
لَـمْ يَـرَ ـ غَـيْـرَ قَـتْـلِـهِ ـ ثَـوابـا

وَأَهْـلَـكَ ٱلْـغُـرابُ مَـنْ رَبَّـاهُ
جَـزاءَ مـا قَـدَّمَ مِـنْ حُـسْـنـاهُ

الشَّرْحُ

أَخْبَرَتْنا ٱلْقِصَصُ ٱلَّتِي نَقَلَتْها إِلَيْنا ٱلْعُصُورُ ٱلْماضِيَةُ: أَنَّ عُصْفُوراً أَبْصَرَ غُراباً وَلِيداً ـ فِي عُشِّهِ ـ يَكادُ يَهْلِكُ.

فَقَرَّبَ مِنْهُ ما يَبْعَثُ فِي جِسْمِهِ ٱلدِّفْءَ، وَسَقاهُ ما يَشْفِيهِ.

فَلَمَّا نَشِطَ ٱلْغُرابُ ٱلصَّغِيرُ، وَتَقَدَّمَتْ بِهِ ٱلأَيَّامُ، وَبَلَغَ مَبْلَغَ ٱلشَّبابِ، دَفَعَتْهُ نَفْسُهُ ٱلشِّرِّيرَةُ إِلَىٰ أَنْ يَقْتُلَ ٱلْعُصْفُورَ ٱلَّذِي قَدَّمَ لَهُ فَضْلاً، وَأَسْدَىٰ إِلَيْهِ جَمِيلاً. وَذٰلِكَ سُوءُ ٱلْجَزاءِ.

- ٢ -

فَرخ الغُرابِ

وَقالَ أَحْمَدُ شَوْقِي بِك:

١ ـ وَمُـمَـهَّـدٍ فِـي ٱلْـوَكْـرِ، مِـنْ
وَلَـدِ ٱلْـغُـرابِ، مُـزَقَّـقِ

---

١ ـ مُمَهَّدٌ فِي ٱلْوَكْرِ، يَعْنِي: أَنَّ فِراشَهُ مُهَيَّأٌ لَهُ، فِي عُشِّهِ، مُعَدٌّ أَتَمَّ إِعْدادٍ لِراحَتِهِ وَنَوْمِهِ.

مُزَقَّقٌ، يَعْنِي: أَنَّ مَنْ يُطْعِمُهُ يُناوِلُهُ غِذاءَهُ بِمِنْقارِهِ.

يَقُولُ: إِنَّ فَرْخَ ٱلْغُرابِ هذا، قَدْ ظَفِرَ بِعَيْشٍ ناعِمٍ رَغِيدٍ. فَفِراشُهُ مُهَيَّأٌ مَبْسُوطٌ، وَقَدْ أُعِدَّتْ لَهُ وَسِيلَةُ راحَتِهِ وَنَوْمِهِ أَتَمَّ إِعْدادٍ. فَلَمْ يَتْعَبْ فِي ٱلْحُصُولِ عَلَىٰ رِزْقِهِ، بَلْ ظَفِرَ بِهِ هَيِّناً لَيِّناً، فِي غَيْرِ مَشَقَّةٍ وَلا عَناءٍ: فَإِنَّ مَنْ يُطْعِمُهُ، يُناوِلُهُ طَعامَهُ بِمِنْقارِهِ، فَلا يُحْوِجُهُ إِلَىٰ بَذْلِ أَيِّ جُهْدٍ.

٢ ـ لَبِسَ ٱلرَّمادَ عَلَىٰ سَوا
دِ جَناحِهِ وَٱلْمَفْرِقِ

٣ ـ كَٱلْفَحْمِ: غادَرَ ـ فِي ٱلرَّما
دِ بَقِيَّةً لَمْ تُحْرَقِ

---

٢ ـ ٱلْمَفْرِقُ: وَسْطُ ٱلرَّأْسِ، وَهُوَ ٱلَّذِي يُفْرَقُ فِيهِ ٱلشَّعَرُ. يَقُولُ: إِنَّ وَلَدَ ٱلْغُرابِ هذا، لَمْ يَكْتَفِ بِسَوادِ جَناحِهِ وَمَفْرِقِهِ (أَيْ: وَسْطِ رَأْسِهِ)، فَٱرْتَدَىٰ (أَيْ: لَبِسَ) ثَوْباً رَمادِيًّا (يَعْنِي: إِنَّ لَوْنَهُ يُشْبِهُ ٱلرَّمادَ).

٣ ـ يَعْنِي: أَنَّ هذا ٱلْفَرْخَ، بَعْدَ أَنِ ٱرْتَدَى ثَوْبَهُ ٱلرَّمادِيَّ ـ عَلَىٰ سَوادِ جَناحِهِ وَمَفْرِقِهِ ـ قَدْ أَصْبَحَ لَوْنُهُ أَشْبَهَ شَيْءٍ بِفَحْمَةٍ ٱحْتَرَقَ أَكْثَرُها فَصارَ رَماداً، وَبَقِيَ مِنْها جُزْءٌ قَلِيلٌ لَمْ يَحْتَرِقْ، فَظَلَّ ـ عَلَىٰ حالِهِ ـ أَسْوَدَ شَدِيدَ ٱلسَّوادِ.

٤ ـ ثُـلُـثـاهُ: مِـنْـقـارٌ، وَرَأْ
سٌ، وَٱلأَظـافِـرُ مـا بَـقِـي

٥ ـ ضَـخْـمُ ٱلـدِّماغِ، عَـلَـى ٱلْـخُـلُـوِّ
مِـنَ ٱلْـحِـجـا وَٱلْـمَـنْـطِـقِ

---

٤ ـ يَعْنِي: إِنَّ رَأْسَهُ وَمِنْقارَهُ يَتَأَلَّفُ مِنْهُما ثُلُثا جِسْمِهِ. أَمَّا ٱلثُّلُثُ ٱلْباقِي، فَيَتَأَلَّفُ مِنْ أَظافِرِهِ.

٥ ـ يَعْنِي: إِنَّ فَرْخَ ٱلْغُرابِ ـ بِرَغْمِ ضَخامَةِ رَأْسِهِ ـ خالٍ مِنَ ٱلْعَقْلِ، عاجِزٌ عَنِ ٱلنُّطْقِ. فَلَيْسَ فِيهِ ـ عَلَىٰ ضَخامَتِهِ ـ عَقْلٌ يُفَكِّرُ، وَلا لِسانٌ يَنْطِقُ. وَمَتَى حُرِمَ ٱلنُّطْقَ وٱلتَّفْكِيرَ، فَأَيَّةُ فائِدَةٍ فِيما ظَفِرَ بِهِ وَلَدُ ٱلْغُرابِ، مِنْ رَأْسٍ كَبِيرٍ؟

كَلِماتُ ٱلْقِصَصِ

[نُثْبِتُ فِي هذِهِ ٱلصَّفْحاتِ طائِفَةً مِنَ ٱلْكَلِماتِ ٱلَّتِي مَرَّتْ بِٱلْقارِئِ - مُفَسَّرَةً - لِيَسْهُلَ عَلَيْهِ مُراجَعَتُها وَٱسْتِذْكارُها مَتَىٰ شاءَ].

إِلْمَامَة

بِضْعَةُ عُقُودٍ : عَشَراتٌ قَلِيلَةٌ مِنَ ٱلسِّنِينَ.

ٱلْمُخَضْرَمُ : الَّذِي عاشَ فِي ٱلْعَصْرَيْنِ ٱلْجاهِلِيِّ وَٱلإِسْلامِيِّ.

طَرَّافٌ : جَذَّابُ ٱلْحَدِيثِ.

وَصَّافٌ : دَقِيقُ ٱلْوَصْفِ.

سَبَوْهُ : أَسَرُوهُ.

نَسْتَعْبِدُهُ : نَجْعَلُهُ عَبْداً لَنا.

نَفَرٌ : جَماعَةٌ.

نَأْتَمِرُ : نَتَشاوَرُ.

مِنْ فَرْطِ ٱلْحَنَقِ : مِنْ شِدَّةِ ٱلْغَيْظِ.

فِيمَ : لأَيِّ سَبَبٍ.

مُعَلّمُ النُّبَاحِ

ضَمَّ : جَمَعَ.

مُعاصِرُوهُ : ٱلَّذِينَ عاشُوا فِي عَصْرِهِ.

يَعْتَبِرُ : يَتَّعِظُ.

مَناهِجُ ٱلْجَوْرِ : أَسالِيبُ ٱلظُّلْمِ.

هُتافُهُمْ بِها : ٱمْتِداحُهُمْ إِيَّاها، وَثَناؤُهُمْ عَلَيْها.

وافَقَتْ أَهْدافَهُمْ : أَصابَتْ أَغْراضَهُمْ.

قَضاءُ لُباناتِهِمْ : تَحْقِيقُ مَآرِبِهِمْ وَرَغَباتِهِمْ.

ٱصْطَدَمَتْ بِأَنانِيَّتِهِمْ : تضارَبَتْ مَعَ حِرْصِهِمْ وَغُلُوِّهِمْ فِي حُبِّ أَنْفُسِهِمْ.

ضاقُوا بِتِلْكَ ٱلطَّرائِقِ ذَرْعاً : ضَجِرَتْ نُفُوسُهُمْ بِتِلْكَ ٱلأَسالِيبِ.

ٱلْمَناهِجُ : ٱلْمَسالِكُ.

فُنُونٌ مِنَ ٱلْوَيْلِ : ضُرُوبٌ مِنَ ٱلْعَذابِ.

قاتَلَ ٱللّٰهُ ٱلأَثَرَةَ : لَعَنَ ٱللّٰهُ ٱلْحِرْصَ ٱلَّذِي يَدْفَعُ

صاحِبَهُ إِلَىٰ تَخَيُّرِ ٱلأَشْياءِ ٱلْحَسَنَةِ لِنَفْسِهِ، وَٱلانْفِرادِ بِها دُونَ غَيْرِهِ.

ٱلأَنانِيَّةُ : حُبُّ ٱلنَّفْسِ.

تُضِلُّ ٱلذَّكِيَّ : تُصَيِّرُهُ إِلَىٰ ٱلضَّلالِ، وتُبْعِدُهُ عَنِ ٱلصَّوابِ.

تُلْغِي : تُبْطِلُ وَتُسْقِطُ.

ٱلْمَنْطِقُ ٱلسَّدِيدُ : ٱلْكَلاَمُ ٱلْمُصِيبُ ٱلصَّحِيحُ ٱلْقاصِدُ إِلَىٰ ٱلْحَقِّ.

ٱلْهَوَىٰ : مَيْلُ ٱلنَّفْسِ إِلَىٰ ٱلْباطِلِ، وَزَيْغُها عَنِ ٱلطَّرِيقَةِ ٱلْمُثْلَىٰ.

ٱلْغَرَضُ : ٱلْحاجَةُ ٱلَّتِي تَسْعَىٰ إِلَىٰ تَحْقِيقِها.

مَا هُوَ خَلِيقٌ بِهِ : مَا هُوَ وَاجِبٌ عَلَيْهِ.

ٱلاتِّزانُ : ٱلاعْتِدالُ.

الْقَصْدُ : ٱلتَّوَسُّطُ بَيْنَ ٱلتَّبْذِيرِ وَٱلتَّقْتِيرِ.

لا يَجُوزُ لِمُنْصِفٍ : لا يَحِقُّ لِعادِلٍ.

يَتَخَيَّرُ ٱلرَّأْيَ وَيَرْتَضِيهِ : يَخْتارُهُ وَيَقْنَعُ بِهِ.

يَأْبَى : يَكْرَهُ وَيَرْفُضُ.

ٱلذُّؤابَةُ : ٱلضَّفِيرَةُ ٱلْمُرْسَلَةُ مِنَ ٱلشَّعْرِ.

جِدارٌ : حائِطٌ.

حائِشٌ : جَماعَةٌ مِنَ ٱلنَّخْلِ.

تُطْوَىٰ : تُقْطَعُ.

يُطْوَىٰ ٱلْعُمْرُ بِٱلأَنْفاسِ : تَنْقَضِي أَعْمارُنا نَفَساً بَعْدَ نَفَسٍ.

يَومُ الْقِيَامَةِ

قَلَّما يَعْنِيهِمْ : نادِراً ما يَهُمُّهُمْ.

أَهْواؤُهُمْ : رَغَباتُهُمْ.

أَلِفْتُ : تَعَوَّدْتُ.

تَبَيَّنَ : ظَهَرَ.

مُنْذُ بَدْءِ ٱلْخَلِيقَةِ : مِنْ أَوَّلِ ٱلْوُجُودِ فِي هَذا ٱلْعَالَمِ.

طالَما جارَيْتُهُمْ فِيما يَقُولُونَ : كَثِيراً ما جَرَيْتُ مَعَهُمْ فِي أَقْوالِهِمْ، وَوافَقْتُهُمْ عَلَيْها.

تَفادَيْتُ مِن ٱلاشْتِباكِ : تَحامَيْتُ ٱلْمُشاجَرَةَ.

جِدالٌ عَقِيمٌ : مُنَاقَشَةٌ لا ثَمَرَةَ فِيها.

أَخَذْتُ نَفْسِي بِهِ : أَلْزَمْتُ نَفْسِي بِهِ.

مُنْذُ بَدْءِ حَياتِي : مِنْ أَوَّلِها.

لَمْ أَدَعْ سَبيلاً : لَمْ أَتْرُكْ طَرِيقاً.

رَأَوْا في دَارِي : نَظَرُوا في بَيْتِي.

رائِعُ ٱلْمَنظَرِ : حَسَنُ ٱلْهَيْئَةِ.

سالَ لُعابُهُمْ : تَحَلَّبَ رِيقُهُمْ.

ٱئْتَمَرُوا : تَشاوَرُوا في ٱلأَمْرِ.

لا يَتَسَرَّبُ : لا يَنْفُذُ.

قِيامُ ٱلسَّاعَةِ : يَوْمُ ٱلْقِيامَةِ.

ما بالُكَ لا تُعَجِّلُ : لِماذا لا تُسْرِعُ.

أَعَدَّ : هَيَّأَ.

مَأْدُبَةٌ فاخِرَةٌ : طعامٌ لَذِيذٌ.

نَنْعَمُ : نَهْنَأُ.

نَفْنَىٰ : نَمُوتُ.

ٱقْتَدَوْا بِي : فَعَلُوا مِثْلَ ما فَعَلْتُ.

تَعوقُنا : تَمْنَعُنا.

ٱلنَّارُ ٱلْمُوقَدَةُ : ٱلْمُشْتَعِلَةِ.

بَذَلَ	: أَعْطَىٰ.
ظَفِرُوا	: فازُوا.
يَبْهَجُ	: يَسُرُّ.
عَظِيمُ ٱلْخَطَرِ	: كَبِيرُ ٱلشَّأْنِ، جَلِيلُ ٱلْقَدْرِ.
يَتَأَلَّفُ	: يَتَجَمَّعُ.
غايَةٌ فِي ٱلضَّآلَةِ	: مُتَناهِيَةٌ فِي ٱلصِّغَرِ.
لا غَرْوَ	: لا عَجَبَ.
مِمَّ تَأَلَّفَتْ	: مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَجَمَّعَتْ.
أَتَدْرِيانِ	: أَتَعْرِفانِ.
ذَرَّاتٌ	: أَجْزاءٌ صَغِيرَةٌ.
ٱلأَحْقابُ	: ٱلأَزْمانُ وَٱلْعُصُورُ ٱلطَّوِيلَةُ.
فِي أَثَرِهِ	: فِي عَقِبِهِ.
دَقِيقَةٌ تِلْوَ الأُخْرَىٰ	: دَقِيقَةٌ تَتْبَعُ دَقِيقَةً.
ٱنْقَضَتْ بِٱنْقِضائِها	: ٱنْتَهَتْ بِٱنْتِهائِها.
ٱلأَعْوامُ	: ٱلسِّنُونَ.
تَبْذُلانِها	: تُنْفِقانِها.

يُمَيِّزُكُما : يُفرِدُكُما.

وادِعَةٌ : هادِئَةٌ.

رَغادَةٌ : طِيبُ عَيْشٍ.

تَبَدَّلَ سُهادُهُمْ غُمْضاً : أَصْبَحَ سَهَرُهُمْ نَوْماً.

تَبَدَّلَ شَظَفُهُمْ خَفْضاً : تَحَوَّلَ عَيْشُهُمُ ٱلضَّيِّقُ ٱلْيابِسُ ٱلشَّدِيدُ خِصْباً وَلِيناً وَدَعَةً وَسَعَةَ عَيْشٍ.

أَصْغَرْتُ مِنْ شَأْنِها : ٱحْتَقَرْتُها وٱسْتَهَنْتُ بِها.

حَدَثَ ما لَمْ يَكُنْ فِي ٱلْحِسْبانِ : حَدَثَ ما لَمْ يَدُرْ بِٱلظَّنِّ.

وَعَيْتُهُ : حَفِظْتُهُ.

بَدْءُ شَبابِي : أَوَّلُهُ.

لَفْظَةُ سُوءٍ : كَلِمَةٌ لا يَحْسُنُ بِكَ أَنْ تَقُولَها.

عُدِدْتُ مِنَ الأَبْرارِ : أَصْبَحْتُ واحِداً مِنَ ٱلأَخْيارِ ٱلصَّالِحِينَ.

ٱئْتَلَفَ مِنَ ٱلسَّاعِ : ٱجْتَمَعَ مِنَ ٱلسَّاعاتِ.

يُسْتَكْمَلُ : يَتِمُّ.

عُصْبَةٌ : جَماعَةٌ.

دَأْبُهُمْ : عادَتُهُمْ وَشَأْنُهُمْ.

حَدِثٌ : حَسَنُ ٱلْحَدِيثِ.

رَوائِعُهُ ٱلْمُسْتَفِيضَةُ : أَحادِيثُهُ ٱلذَّائِعَةُ ٱلَّتِي يُعْجَبُ ٱلنَّاسُ بِحُسْنِها.

أَحْداثُ ٱلدَّهْرِ : نُوَبُهُ وَمَصائِبُهُ.

مُنِيَ : ٱبْتُلِيَ.

دُعابَةٌ : فُكاهَةٌ.

عَمِرَ : عاشَ.

ٱسْتَأْثَرَ : ٱخْتَصَّ وٱنْفَرَدَ.

مَرْوِيَّةٌ : مَحْكِيَّةٌ.

يُنَقِّبُونَ : يَبْحَثُونَ.

يُغِيرُونَ عَلَيها : يَسْلُبُونَها.

مَعْزُوٌّ : مَنْسُوبٌ.

أَنْماطٌ : أَنواعٌ.

نُوجِزُهُ : نَخْتَصِرُهُ.

يُحْسِبُنا : يَكْفِينا.

ٱلْخاطِفَةُ	: ٱلسَّرِيعَةُ.
ٱلْخِداعُ وَٱلتَّلْبِيسُ	: ٱلْغِشُّ وَٱلتَّدْلِيسُ.
مُحَدَّثٌ	: مُلْهَمٌ صادِقُ ٱلْفِراسَةِ.

بِرْمِيلُ الْعَسَلِ

يُؤْثِرُهُ	: يَخْتارُهُ وَيُفَضِّلُهُ.
أَلْوانُ ٱلْحَلْوَىٰ	: أَنْوَاعُ ٱلْحَلْوَىٰ.
ٱحْتَشَدْنا	: ٱجْتَمَعْنا.
تَأَهَّبْنا	: تَهَيَّأْنا وَٱسْتَعْدَدْنا
ٱلأَحْتِفاءُ بِمَقْدَمِهِ	: ٱلْمُبالَغَةُ فِي إِكْرامِهِ، وَإِظْهارُ ٱلسُّرُورِ وَٱلْفَرَحِ بِهِ.
تَعَاهَدْنا	: تَحالَفْنا وَعَقَدْنا ٱلْعَزْمَ.
بِأَيْسَرِ نَصِيبٍ	: يَشْتَرِكُ فِيها بِأَقَلِّ شَيْءٍ يَقْدِرُ عَلَيْهِ.
سَوَّلَتْ	: زَيَّنَتْ.
ٱلْيَسِيرُ	: ٱلسَّهْلُ.
ٱلأَنانِيَّةُ	: حُبُّ ٱلنَّفْسِ.
ٱلْمِئُونَ	: ٱلْمِئاتُ.

جَزانِي عَلَى هَذا ٱلصَّنِيعِ : كافَأَنِي عَلَىٰ هذا ٱلْمَعْرُوفِ.

هازِىءٌ : ساخِرٌ.

زِرايَةٌ عَلَيْهِ : ٱسْتِخْفافٌ بِهِ وَٱحْتِقارٌ لَهُ.

نُفُورٌ مِنْهُ : إِعْراضٌ وَتَباعُدٌ عَنْهُ.

ٱلنَّهْجُ ٱلقَوِيمُ : ٱلطَّرِيقُ ٱلمُسْتَقِيمُ.

أَسْتَنْجِزُهُ وَعْدَهُ : أَطْلُبُ مِنْهُ ٱلْوَفاءَ بِهِ.

صَفاقَةٌ : وَقاحَةٌ.

مُبْدِعٌ : مُبْتَكِرٌ وَمُخْتَرِعٌ.

وَيْحَكَ : أَنْزَلَ ٱللهُ بِكَ الوَيْلَ وَالشَّرَّ.

نَفِدَتْ : فَنِيَتْ وَذَهَبَتْ.

دَبَّ ٱلْيَأْسُ : سَرَىٰ وَمَشَىٰ.

غادَرْتُهُ : تَرَكْتُهُ.

مَهِيضُ ٱلْجَناحِ : مَكْسُورُهُ أَيْ: ضَعِيفٌ عَاجِزٌ لا قُدْرَةَ لَهُ ولا قُوَّةَ..

ما ٱنْطَوَتْ عَلَيْهِ نُفُوسُ ٱلنَّاسِ : ما أَضْمَرَتْهُ وٱنْتَوَتْهُ.

كَيْفَ تَبَيَّنْتَ خاتِمَةَ ٱلْقِصَّةِ : كَيْفَ فَهِمْتَ نِهايَتَها فَهْماً واضِحاً.

قَبْلَ أَنْ أُفْضِيَ بِها إِلَيْكَ	: قَبْلَ أَنْ أُخْبِرَكَ بِها.
مُسْتَغْرِبٌ	: مُبالِغٌ فِي الضَّحِكِ.
جَلِيَّةٌ	: بَيِّنَةٌ.
لَمْ يَتَنَكَّبْ عَنْها	: لَمْ يَعْدِلْ عَنْها.
لَمْ يَحِدْ	: لَمْ يَمِلْ.
يَغْتالُ حُقُوقَ ٱلنَّاسِ	: يأْخُذُها مِنْ حَيْثُ لا يَدْرُونَ أَنَّهُ يَنْوِي ٱغْتِصابَها.
كَيفَ تُرِيدُهُ عَلَىٰ ٱلْوَفاءِ	: كَيْفَ تُوجِبُ عَلَيْهِ ذلِكَ.
ما بَالُكَ؟	: مَا شَأْنُكَ؟.
لَقَّنْتَهُ	: فَهَّمْتَهُ.
الأَثَرَةُ	: حُبُّ النَّفْسِ.
الأَنَانِيَّةُ	: شِدَّةُ ٱلْحِرْصِ.
سُنَّةٌ	: خُطَّةٌ.
اَقْتَفَىٰ آثَارَكَ	: اَتَّبَعَ خُطُوَاتِكَ.
اَرْتَضَىٰ سِيرَتَكَ	: اَخْتارَ طَرِيقَتَكَ.
اَلشَّاةُ	: اَلنَّعْجَةُ وَٱلخَرُوفُ.

أَسْبابُ ٱلنَّجاةِ مِنْ وَرْطَتِهِ	: وَسائِلُ ٱلْفَكاكِ مِمّا أَلَمَّ بِهِ مِنَ ٱلضِّيقِ.
ٱلْكُرْبَةُ	: ٱلْحُزْنُ يَأْخُذُ بِٱلنَّفْسِ.
نَفَّذَ ٱلْخُطَّةَ	: أَنْجَزَها.
بَراعَةٌ	: خِبْرَةٌ زائِدَةٌ.
حِذْقٌ	: مَهارَةٌ وَمَعْرِفَةٌ لِلْغَوامِضِ وٱلدَّقائِقِ.
قَرَأَ عَلَيْهِ ٱلسَّلامَ	: أَبْلَغَهُ ٱلسَّلامَ.
زَمَنٌ يَسِيرٌ	: وَقْتٌ قَلِيلٌ.
زَاعَتْ	: ظَهَرَتْ وعُرِفَتْ.
يَتَقاضَوْنَهُ دُيُونَهُمْ	: يُطالِبُونَهُ بِها.
يَعْنُفُونَ بِهِ	: يَقْسُونَ عَلَيْهِ.
تَارةٌ	: مَرَّةً.
يُسْرِفُونَ فِي وَعِيدِهِمْ	: يُبالِغُونَ فِي تَهْدِيدِهِمْ.
لَمْ تُجْدِ	: لَمْ تَنْفَعْ.
ما أَغْنَتْ	: لَمْ تُفْلِحْ.
رَدَعَهُ	: زَجَرَهُ.

يَسْتَرْسِلُ	: يَتَمادَىٰ.
ٱلْعُيُونُ	: ٱلْجَواسِيسُ.
يَتْبَعُونَ ظِلَّهُ	: يَقْتَفُونَ أَثَرَهُ.
لَمَمٌ	: طَرَفٌ مِنْ جُنُونٍ يُلِمُّ بِٱلإِنْسانِ.
ٱلإِقْلاعُ	: ٱلتَّرْكُ وَٱلْكَفُّ.
قِبَلَهُ	: عِنْدَهُ.
يَغْدُوا وَيَرُوحُ	: يَذْهَبُ وَيَجِيءُ.
حَيْثُ شاءَ	: أَيِّ مَكانٍ.
يُزْعِجُهُ	: يُقْلِقُهُ، أَوْ يُزَحْزِحُهُ عَنْ مَكانِهِ.
يُنَغِّصُ	: يُكَدِّرُ.
غَرِيمٌ	: خَصْمٌ يُطَالِبُهُ بِدَيْنٍ.
صَمَتَ	: سَكَتَ.
بَدا عَلَىٰ سِيماهُ ٱلْوُجُومُ	: ظَهَرَ عَلَىٰ هَيْئَتِهِ ٱلسُّكُوتُ فِي غَيْظٍ، وٱلْعَجْزُ عَنِ ٱلتَّكَلُّمِ مِنْ كَثْرَةِ ٱلْغَمِّ وَٱلْخَوْفِ.
تَجَلَّتْ عَلَىٰ أَسارِيرِهِ	: تَكَشَّفَتْ عَلَىٰ خُطُوطِ جَبِينِهِ.
ٱسْتَيْقَظَ	: ٱنْتَبَهَ.

سَكَنَ رُوعُهُ : ٱطْمَأَنَّ قَلْبُهُ.

سُرِّيَ عَنْهُ : كُشِفَ عَنْهُ ٱلْهَمُّ وزالَ.

ما عَتَّمَ : ما لَبِثَ.

بَشاشَتُهُ : إِشْراقُ وَجْهِهِ وَطَلاقَتُهُ.

ٱلْفَكاكُ مِنْ أَسْرِهِ وَآسِرِيهِ : ٱلْخَلاصُ وَٱلانْطِلاقُ مِنْ قَيْدِهِ وَمُقَيِّدِيهِ.

أَسْلَفْتَهُ : قَدَّمْتَهُ.

عَهْدٌ : ذِمَّةٌ وَرِعايَةٌ.

مِيثاقٌ : ضَمانٌ.

أَظْفَرْتَنِي بِذلِكَ : جَعَلْتَنِي أَفُوزُ بِهِ.

ضِعْفُ دَيْنِهِ : مِقْدارُهُ مَرَّتَيْنِ.

لا أَنْسَيَنَّ لَكَ صَنِيعَكَ ما حَيِيتُ: لَنْ أَنْسَىٰ مَعْرُوفَكَ طُولَ حَياتِي.

تُعِدُّها : تُهَيِّئُها.

تَكَلَّفَ ٱلْجِدَّ وَٱلْوَقارَ : تَظاهَرَ بِٱلْعَظَمَةِ وَٱلْحِلْمِ وَٱلرَّزانَةِ.

حَيّاكَ : سَلَّمَ عَلَيْكَ.

تَمادَىٰ فِي ٱلإِلْحاحِ : لَجَّ وَبَلَغَ فِيهِ ٱلْمَدَىٰ، وَدامَ عَلَىٰ فِعْلِهِ.

تَمادَىٰ فِي ٱلنُّباحِ : بَلَغَ فِيهِ ٱلْغايَةَ.

شِعارٌ لَكَ : عَلامَةٌ تُعْرَفُ بِها.

لا تَكُفُّ : لا تَمْتَنِعُ.

عَوَىٰ : نَبَحَ.

مَثَلَتْ : وَقَفَتْ.

ٱعْتَصِمْ بِٱلصَّمْتِ : ٱلْـزَمِ ٱلـسُّـكُـوتَ وَصـاحِـبْهُ، وَلا تَتْرُكْهُ.

جَلِيَّةُ أَمْرِكَ : حَقِيقَتُهُ.

لَمْ يُحِرْ جَواباً : لَمْ يَرُدَّ.

عُواءٌ : نُباحٌ.

يَقِرُّ فِي نَفْسِهِ : يَقَعُ وَيَبْقَىٰ أَثَرُهُ فِيها.

مُتَصَنِّعٌ : مُتَكَلِّفٌ.

حِوارُهُ : مناقَشَتُهُ.

أُفْعِمَتْ نَفْسُهُ عِرْفاناً بِٱلْجَمِيلِ : ٱمْتَلأَتْ بِٱلشُّكْرِ لِما قَدَّمْتَهُ مِنْ مَعْرُوفٍ.

ٱلإِطْراءُ : ٱلْمَدْحُ.

يَسَّرَ : سَهَّلَ.

ما أَوْلاهُ بِأَنْ يَرُوضَ نَفْسَهُ : ما أَجْدَرَهُ أَنْ يُذَلِّلَها وَيُمَرِّنَها.

ٱلإِنْصافُ : ٱلْعَدْلُ.

خَلِيقٌ بِهِ : وَاجِبٌ عَلَيْهِ.

ٱحْتِمالُ عَواقِبِ مَشُورَتِهِ : ٱلصَّبْرُ عَلَىٰ نَتائِجِ نَصِيحَتِهِ.

تَكَادُ مَرَارَتُهُ تَتَمَيَّزُ مِنَ الغَيْظِ : تَكَادُ تَنْشَقُّ مِنَ الغَضَبِ.

نَهَجَ خُطَّتَها : أَبانَ طَرِيقَهُ إِلَيها وَوَضَّحَها.

وَفَدَ عَلَيَّ مُتَجَهِّماً : ٱسْتَقْبَلَنِي بِوَجْهٍ مُكْفَهِرٍّ كَرِيهٍ.

ما خَطْبُهُ : ما شَأْنُهُ، وَأَيُّ مَكْرُوهٍ قَدْ أَصابَهُ.

يَعْنِي : يَقْصِدُ.

كَوارِثُ وَأَحْداثٌ : مَصائِبُ وَمِحَنٌ.

ٱخْتَلَطَ : جُنَّ وَذَهَبَ عَقْلُهُ.

يُذاعُ : يَظْهَرُ وَيَنْتَشِرُ خَبَرُهُ.

ٱلأَسْماعُ : ٱلآذانُ.

مَهْرَبٌ : مَخْلَصٌ.

لاذَ بِهِ : ٱعْتَصَمَ بِهِ، وَلَجَأَ إِلَيْهِ.

تَشَبَّثَ : تَعَلَّقَ.

جازَتْ حِيلَتَهَ	: مَرَّتْ.
آيَةٌ مِنْ آياتِ ٱلْخِداعِ	: مِثالٌ نادِرٌ مِنْ أَمْثِلَةِ ٱلْمَكْرِ وَٱلْحِيلَةِ.
ٱلْغَدْرُ	: ٱلْخِيانَةُ وَنَقْضُ ٱلْعَهْدِ.
ٱلْعُقُوقُ	: ٱلاسْتِخْفافُ وَٱلْعِصْيانُ وَتَرْكُ ٱلشَّفَقَةِ وَٱلإِحْسانِ.
مُؤَنِّبٌ	: لائِمٌ مُبَكِّتٌ.
أَرْهَقَتْهُ دُيُونُهُ	: حَمَلَتْهُ عَلَىٰ ما لا يُطِيقُ.
أَلَحَّ عَلَيْهِ دائِنُوهُ	: أَقْبَلُوا عَلَيْهِ مُواظِبِينَ.
ٱلاخْتِباءُ	: ٱلاسْتِتارُ.
إِلْحافُ غُرَمائِهِ	: إِلْحاحُ دائِنيهِ.
مُطارَدَتُهُ	: مُلاحَقَتُهُ.
إِمْعانُهُ فِي ٱلاخْتِجابِ	: مُبالَغَتُهُ فِي ٱلاخْتِفاءِ.
تَجَهَّمَ لي	: ٱسْتَقْبَلَنِي بِوَجْهٍ كَرِيهٍ.
ٱلحَيْرَةُ	: ٱلتَّرَدُّدُ.
ٱلارْتِباكُ	: ٱلاضْطِرابُ وٱخْتِلاطُ ٱلرَّأْيِ.
سِيماهُ	: مَنْظَرُهُ وَهَيْئَتُهُ وَمَرْآهُ.

وَإِنَّهُ لَيَسُرُّنِي - إِذْ أُتابِعُ مَعَ ٱلتَّقْدِيرِ هذا ٱلْجُهْدَ ٱلْعِلْمِيَّ الْمُتَواصِلَ - أنْ أُلاحِظَ مِقْدارَ ٱلْعِنايَةِ الَّتِي تَبْذُلونَها في هذا ٱلسَّبيلِ، وَٱلفائِدَةَ ٱلَّتي تَعُودُ عَلَىٰ ٱلنَّشْءِ منهُ بِتَهْيِئَةِ أذْهانِ ٱلأَطْفالِ وَعُقُولِهِمْ لِتَقَبُّلِ خَيْرِ الأَفْكارِ وَٱلْمَعاني وَتَقْدِيمِها لَهُمْ عَلَىٰ مِثْلِ هَذِهِ ٱلصُّورةِ ٱلطَّرِيفَةِ[1].

... فَاللَّهُ يُكافِئُكَ عَلَى ما قَدَّمْتَهُ لِلْعَرَبِيَّةِ مِنْ رَوائِعِ أَدَبٍ، تُضيفُ إِلَىٰ كُنُوزِها كُنُوزاً[2].

... وَإِنِّي - وَقَدْ تَتَبَّعْتُ هذا ٱلْمَجْهُودَ ٱلْقَيِّمَ ٱلْمُتَّصِلَ - لا يَسَعُنِي إِلاَّ ٱلإِعْجابُ بِما تُساهِمُونَ به في سَدِّ نَقْصٍ يَشْعُرُ بِهِ الآباءُ في تَعْلِيمِ أطْفالِهِمْ[3].

فَشَكَرَ ٱللَّهُ لكَ ما هَدَفْتَ إِلَيْهِ مِنْ تَنْشِئَةِ ٱلطِّفْلِ: مَشْبوبَ ٱلشَّغَفِ بِٱلْقِراءَةِ وَٱلدَّرْسِ، مَوْفورَ ٱلحَظِّ مِنْ

---

(١) علي ماهر باشا.
(٢) محمد العشماوي باشا.
(٣) محمد بهي الدين بركات باشا.

مَتاعِ ٱلْفِكْرِ، مُسْتقيمَ ٱللِّسانِ عَلَى نَهْجِ ٱلْبَيانِ[1].

فَهِيَ تَتَمَشَّىٰ مَعَ طِباعِ ٱلطِّفْلِ ٱلشَّرْقِيِّ وَغرائِزِهِ حَتَّىٰ يَتَرَعْرَعَ. وَتَجْعَلُ ٱلحَلْقَةَ مُتَّصِلَةً بَيْنَ ٱلْمَدْرَسَةِ وَٱلْبَيْتِ في قِصَصٍ مُناسِبَةٍ مُتَماسِكَةٍ مَعَ نَفْسِيَّةِ ٱلطِّفْلِ وَعَقْلِيَّتِهِ وَبِيْئَتِهِ وَما يَهْوَىٰ سَماعَهُ أَوْ يَميلُ لِوَعْيِهِ بِأُسْلوبٍ صَحيحٍ فَصيحٍ، إِذا حَفِظَهُ ٱلصَّبِيُّ صَغيراً نَفَعَهُ كَبيراً[2].

ومَنِ ثَمَّ يَشِبُّ ٱلطِّفْلُ، وَقَدْ صَحَّتْ مَلَكَتُهُ، وَأُشْرِبَتِ ٱلْفُصْحَىٰ فِكرَتُهُ[3].

آراء في مكتبة الأطفال

لَقِيَتْ مَكْتَبَةُ ٱلأَطْفالِ ـ مُنْذُ ظَهَرَتْ ـ تَرْحيباً مِنْ طَوائِفِ رِجالِ ٱلتَّرْبِيَةِ وَٱلتَّعْلِيمِ وَأَئِمَّةِ الثَّقافَةِ، وَكِبارِ ٱلأُدَباءِ وَٱلشُّعَرَاءِ، لا فِي مِصْرَ وَحْدَها، بَلْ فِي ٱلشَّرْقِ

(١) محمد توفيق رفعت باشا.
(٢) محمد حلمي عيسى باشا.
(٣) محمد علي علوية باشا.

يَقْتَضِيني : يُوجِبُ عَلَيَّ.

أَنْتَحِلُ : أنْسُبُ لِنَفْسِي.

لا أَشْفِي مِنْ قَرَمٍ : إِنَّ ٱلشَّغَفَ بأَكْلِ ٱللَّحْمِ، وَٱلشَّوْقَ ٱلشَّدِيدَ إِلَيْهِ، لَنْ يَشْفِيَهُ ما يَحْتَويهِ جِسْمِي الضَّئِيلُ مِنْ لَحْمٍ قَلِيلٍ.

لا تَلْهَفَنَّ : لا تَشْتَدَّ حَسْرَتُكَ.

خَلاّها : تَرَكَها وَأَطْلَقَ سَراحَها.

تَلَهَّفَ : تَحَسَّرَ.

سُدَىٰ : ضَيَاعٌ.

ٱرْتَدَىٰ : لَبِسَ.

ثَوْبٌ رَمادِيٌّ : ثَوْبٌ لَوْنُهُ يُشْبِهُ ٱلرَّمَادَ.

❋ ❋ ❋



مكتبة الكيلاني للأطفال

نخبة من آراء حضرات أصحاب الرِّفعة والمعالي والسعادة وزراء المعارف مرتبة أسماؤهم على الحروف الهجائية

... وهكذا نَجَحْتَ ـ يا أُسْتاذُ ـ فِي أَنْ تُحَبِّبَ إِلى الأَطْفالِ مَكْتَبَتَهُم وتُغْرِيَهُم بِٱلْمُطالَعَةِ(١).

ولَئِنْ أدركَ ٱلأَطْفالُ ـ بِرِياضِ ٱلأَطْفالِ ـ مُراداً بعيداً، لقد فَتَحْتَ لهُم ـ بِمَكْتَبَةِ ٱلأَطْفالِ ـ فتْحاً جَديداً. أَدْرَكْتَ أَرَبَ نُفوسِهِمْ، وَأَبْدَلْتَهُمْ أُنْساً مِنْ عُبوسِهِمْ، وَهِجْتَ لِلْمعالي أَشْواقَهُم، وَحَسَّنْتَ لُغَتَهُم وَأَخْلاقَهُم(٢).

وَٱلأُسْتاذُ الْكِيلانِيّ ـ مُنْشِيءُ مَكْتَبَةِ ٱلأَطْفالِ ـ أَدِيبٌ عَالَمِيٌّ جَدِيرٌ بِما يَهْدِفُ إِلَيْهِ مِنْ نَبيلِ ٱلأَغْراضِ(٣).

---

(١) أحمد لطفي السيد باشا.

(٢) أحمد نجيب الهلالي باشا.

(٣) جعفر ولي باشا.

زَلَّتْ قَدَمُهُ : زَلِقَتْ.

ٱلْغَوايَةُ : ٱلضَّلالُ.

تَنَكَّبَ عَنْ سَبيلِ ٱلسَّدادِ : مالَ عَنْ طَريقِ ٱلاسْتِقامَةِ.

خُطَّةٌ : طَرِيقَةٌ.

لَمْ يَرْعَ : لَمْ يَحْفَظْ.

مُؤْثِراً : مُخْتاراً وَمُفَضِّلاً.

يَسُبُّ : يَشْتُمُ شَتْماً وَجِيعاً.

يَرْمِيهِ بِٱلنَّقْصِ : يَتَّهِمُهُ وَيَعِيبُهُ.

ٱلأَرْجاسُ : ٱلْقَبائِحُ.

أَعْرَضَ : صَدَّ وَمالَ.

الْغُرابُ الطَّائِرُ

أَتاحَتْ : هَيَأَتْ.

ما أَهَمَّهُ مِنْ خَطْبٍ : ما شَغَلَ بَالَهُ مِنْ أَمْرٍ.

لَيْسَ أَحْفَظَ لِلسِّرِّ مِنِّي : لا أَحَدَ أَشَدُّ ٱحْتِفاظاً بِهِ وَكِتْماناً لَهُ مِنِّي.

ٱلإِفْضاءُ بِهِ : نَقْلُهُ وَٱلْبَوْحُ بِهِ.

وضَعَتْ : ولَدَتْ.

قِابِلَةٌ : مُوَلِّدَةٌ.

كُنْهُ بَلْواهُ : حقيقة مُصِيبَتِهِ.

فَرَّجَ كُرْبَتَهُ : أَذْهَبَ عَنْ نَفْسِهِ ٱلْهَمَّ وَٱلضِّيقَ.

أسارِيرُهُ : خُطُوطُ جَبِينِهِ.

بَرِمَ بِإِلْحاحِها : ضاقَ بِهِ وَسَئِمَهُ.

تُخْلِدُ إِلَيْهِ : تَرْكَنُ إِلَيْهِ.

أَفْضِ إِلَيَّ بِدِخْلَتِكَ : أَخْبِرْنِي بما تُخْفِيهِ فِي نَفْسِكَ.

ٱلْكَرَىٰ : ٱلنَّوْمُ.

هَالَهُ : أفْزَعَهُ.

يَتَنادَرُونَ : يَتَفَكَّهُونَ وَيُنَكِّتُونَ.

لا يَرْتابُونَ : لا يَشُكُّونَ.

مَرِحٌ : فَكِهٌ.

مِنْ كُلِّ حَدَبٍ وصَوْبٍ : مِنْ كُلِّ ناحِيَةٍ.

كَيْفَ دَارَ بِأَخْلادِكُمْ : كَيْفَ خَطَرَ ببالِكُم.

ٱسْتَغْرَبَ ٱلحَاضِرُونَ : بالَغُوا في ٱلضَّحِكِ.

آثَرُوا : ٱخْتَارُوا.

يَبْلُغوا أَهْدَافَهُمْ : يَنَالُوا أَغْراضَهُمْ.

ٱلْهُراءُ : ٱلْمَنْطِقُ ٱلْكَثِيرُ ٱلْفاسِدُ لا نِظامَ لَهُ.

يَتَسَنَّمُونَ ٱلْمَجْدَ : يَرْتَفِعُونَ إِلَيْهِ.

ٱلْجُفاءُ : ٱلزَّبَدُ لا خَيْرَ فِيهِ.

تَصَنَّعُوا ٱلْجُنُونَ : تظاهَرُوا بِهِ.

أَعْوَزَهُمْ : فاتَهُمْ.

بَقَرَهَا : شَقَّهَا وَفَتَحَهَا.

جُبَارٌ : هَدْرٌ.

أَنَاةً : عَلَىٰ مَهْلِكَ.

لَمْ يغْبِنْهُ : لَمْ يَغْلِبْهُ وَلَمْ يَخْدَعْهُ.

ما ضَغِنَ : ما حَقَدَ.

ٱلْعَزاءُ : ٱلصَّبْرُ ٱلْحَسَنُ.

ٱلتَّرْفِيهُ : ٱلرَّاحَةُ وَٱلتَّخْفِيفُ.

بَانَ : ظَهَرَ.

أَنابَ : رَجَعَ وَتابَ.

ٱنفَرَجَتْ : ٱنفَتَحَتْ وَٱنكَشَفَتْ.

أساريرُهُ : خُطُوطُ جَبِينِهِ.

تَطَلَّقَ مُحَيّاهُ : ٱنبَسَطَ وَجْهُهُ بَعْدَ ٱنقِباضِهِ.

ظهَرَتْ أماراتُ ٱلْبِشْرِ عَلَىٰ سِيماهُ : بَدا ٱلسُّرُورُ عَلَىٰ هَيْئَتِهِ.

ٱلصِّراطُ : ٱلطَّرِيقُ.

ٱلْمَسْلَكُ : ٱلْمَنْهَجُ.

ٱلسَّراةُ الأكْياسُ : ٱلأَشْرافُ ٱلْعُقَلاءُ.

جَلالَةُ ٱلْخَطَرِ : عِظَمُ ٱلشَّأْنِ.

زعيمُ عَشِيرَتِهِ : رَئيسُ قَبِيلَتِهِ.

تَلوذُ بِكَنَفِهِ : تَجْعَلُهُ حِصْناً لَها.

دَهِمَتْها : غَشِيَتْها وَغَطَّتْها.

يَفْتَقِدونَهُ : يَطْلُبُونَهُ عِنْدَ غَيْبَتِهِ.

ٱلْمُلِحّاتُ : ٱلنَّكَباتُ وَٱلْمَصائِبُ.

لَيْلَةُ ٱلْمِحاقِ : آخِرُ لَيالِي ٱلشَّهْرِ ٱلْعَرَبِيِّ.

تُنهِي إِلَيْهِ أَمْرَها : تُعْلِمُهُ بِهِ.

تَبُثُّهُ سِرَّهَا وَجَهْرَهَا : تُطْلِعُهُ عَلَيْهِمَا وَتُكاشِفُهُ بِهِمَا.

ٱلاسْتِزادَةِ مِنْ مَعْرِفَتِها...»[١].

وَيَسُرُّنِي أَنْ أُبَلِّغَكَ: أَنَّ أَحَدَ أَوْلاَدِي قَرَأَ هَذِهِ ٱلْكُتُبَ كَما قَرَأْتُها، وَأَبَىٰ إِلاَّ أَنْ يَكْتُبَ لَكَ خِطابَ شُكْرٍ، أُرْسِلُهُ إِلَيْكَ، لِيَكُونَ ذلِكَ آيَةَ ٱشْتِراكِ ٱلآباءِ وَالأَبْناءِ فِي الثَّناءِ عَلَىٰ مَجْهُودِكَ ٱلطَّيِّبِ ٱلَّذِي يَسْتَحِقُّ ٱلتَّقْدِيرَ...»[٢].

وَتَمْتازُ تَوالِيفُ ٱلْكِيلانِي بِالْبَساطَةِ في ٱلتَّعْبِيرِ، وَٱلصِّحَّةِ فِي ٱلأَلْفاظِ، وَٱلرِّقَّةِ فِي ٱلتَّرْكِيبِ، وَٱلدِّقَّةِ في ٱلأَداءِ، وَٱلسَّلاسَةِ وَٱلسُّهُولَةِ، مَعَ ٱجْتِنابِ كُلِّ غَرِيبٍ وَنابٍ، وَمَع تَوَخِّي ٱلتَّدرُّجِ بِٱلطِّفْلِ. هذا إِلَىٰ ٱلشَّكْلِ ٱلْكامِلِ حَتَّىٰ يُؤْمَنَ ٱلْخَطَأُ، وَالإِكْثارِ مِنَ ٱلصُّوَرِ ٱلْجَمِيلَةِ ٱلْمُغْرِيَةِ بِٱلْقِراءَةِ...»[٣].

ٱلأُسْتاذُ ٱلْكِيلانِي كَعَقْرَبِ ٱلثَّوانِي: قَصِيرٌ، وَلكِنَّهُ سَرِيعُ ٱلْخُطَىٰ، مُنْتِجٌ يَأْتِي بِدَقائِقِ ٱلأُمُورِ...»[٤].

---

(١) عبد الرحمن عمر بك وزير الصحة الأسبق.
(٢) فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق.
(٣) الأستاذ إبراهيم عبد القادر المازني.
(٤) أحمد شوقي بك.

الفهرس

يُؤَلِّفُ وَيُؤَلِّفُ، حَتَّى أَخْرَجَ لأَفْلاذِ أَكْبادِنا طائِفَةً مِنَ ٱلْكُتُبِ ٱلْقَيِّمَةِ لَمْ يَسْبِقْهُ إِلَيْها أَدِيبٌ. وَوَجَدْنا - بِفَضْلِهِ - ضالَّتَنا، وَكُنَّا نَتَخَبَّطُ مِنْ أَجْلِها في حَيْرَةٍ...[1]

فَٱهْنَأْ بِحِكْمَتِكَ ٱلَّتِي دَوَّنْتَها لِتُنِيرَ
مِنْ سُبُلِ ٱلْهِدايَةِ ما خَفِيَ[2]

... وَلَقَدْ تَصَفَّحْتُ كُلَّ هذِهِ ٱلْكُتُبِ، فَوَجَدْتُها مُفِيدَةً وَمُسَلِّيَةً لِلأَطْفالِ. وهِيَ مَكْتُوبَةٌ بِلُغَةٍ سَهْلَةِ ٱلْفَهْمِ عَلَيْهِمْ، كَما أَنَّها تَشُوقُ ٱلشَّبابَ ٱلصَّغِيرَ ٱلسِّنِّ لِمُطالَعَتِها...[3].

... وَإِنِّي أُؤَكِّدُ لَكَ إِعْجابِي بِمَجْهُوداتِكَ ٱلْقَيِّمَةِ نَحْوَ تَثْقِيفِ ٱلنَّشْءِ ٱلْمِصْرِيِّ...[4].

... وَهِيَ ٱلأُولَىٰ مِنْ نَوْعِها، وَمُبْتَكِرُها نَسِيجُ وَحْدِهِ فِي هذا ٱلْمَيْدانِ ٱلْفَسِيحِ[5].

---

(١) إبراهيم دُسوقي أباظه باشا وزير الأوقاف.
(٢) حضرة صاحب العطوفة: أحمد حلمي باشا مدير بنك الأمة العربية.
(٣) حسن صادق باشا وزير المالية الأسبق.
(٤) حافظ عفيفي باشا وزير الخارجية الأسبق.
(٥) دولة حقي العظم رئيس الوزارة السورية الأسبق.

... وَإِنِّي أُحَيِّي فِيكُمْ مَجْهُوداً مَشْكُوراً يَنْحُو نَحْوَ ٱلْعِنايَةِ فِي ٱلْبَحْثِ وَٱلْمُثابَرَةِ عَلَىٰ كَشْفِ ما فِي أَدَبِنا ٱلْعَرَبِيِّ مِنْ دُرَرٍ ثَمِينَةٍ...[١].

... وَٱلأُسْتاذُ ٱلْكِيلانِيُّ: ٱلأَدِيبُ ٱلْكامِلُ ٱلأَدَواتِ، هُوَ ـ فِي هذا ٱلْعَصْرِ ـ مِنْ سُبَّاقِ حَلْبَتَيْ ٱلنَّظْمِ وَٱلنَّثْرِ، يَكْفِيهِ فَخْراً ـ أَوْ أَجْراً ـ سِلْسِلَةُ ٱلْكُتُبِ ٱلَّتِي أَلَّفَها لِلأَطْفالِ، فَشاعَتْ فِي ٱلأَقْطارِ، وَطارَتْ شُهْرَتُها كُلَّ مَطارٍ. وَقَدْ كانَ فِيها نَسِيجَ وَحْدِهِ، فَأَوْدَعَ فِيها جَمِيعَ ما تَلْزَمُ ٱلأَحْداثَ مَعْرِفَتُهُ ـ مِنْ أُمُورِ ٱلْكَوْنِ ـ عَلَىٰ حَسَبِ دَرَجَةِ ٱلسِّنِّ. وذٰلِكَ بِأُسْلُوبٍ مَتِينٍ، تَتَجَلَّىٰ فِيهِ قُوَّةُ ٱللُّغَةِ، وَتُنَشَّأُ بِهِ عِنْدَ ٱلأَحْداثِ مَلَكَةُ ٱلْعَرَبِيَّةِ[٢].

... وَلَقَدْ لَفَتَ نَظَرِي حُسْنُ ٱلتَّعْبِيرِ وَٱلتَّدَرُّجُ بِٱلأَطْفالِ مِنَ ٱلسَّهْلِ ٱلْبَسِيطِ إِلَىٰ ٱلصَّعْبِ ٱلدَّقِيقِ مِنْ مَعانِي ٱللُّغَةِ ٱلْعَرَبِيَّةِ وَتَفاسِيرِها، مِمَّا يُوَلِّدُ ٱلرَّغْبَةَ فِي

---

(١) سابا حبشي باشا وزير التجارة.

(٢) الأمير شكيب أرسلان.

وَٱلْبَعِيدِ أَيْضاً، وتُرْجِمَتْ إِلَىٰ عِدَّةِ لُغاتٍ شَرْقِيَّةٍ. كَذلِكَ لَمْ يَكْتُمْ حَضَراتُ ٱلْمُسْتَشْرِقِينَ تَقْدِيرَهُمْ لِتِلْكَ ٱلْمَكْتَبَةِ، وَٱسْتِفادَتَهمْ مِنْها، وَجَرَتْ بِذلِكَ أَقْلامُ ٱلْكَثِيرينَ مِنْهُمْ، وَقَدْ ظَهَرَ - مُنْذُ أَعْوامٍ - كِتابٌ لِلأُسْتاذ محمد صادق عنبر عُنْوانُهُ: «نَقِيبُ ٱلأُدَباءِ وَمُنَشِّىءُ ٱلْجِيلِ» حَوَى كَثِيراً مِنْ آراء رِجالِ ٱلْفِكْرِ وَقادَةِ الرَّأْيِ.

كَذلِكَ ظَهَرَ كِتابٌ لِلأُسْتاذِ عطية فهمي شاهين وَفِيهِ دِراسَةٌ مُسْتَفِيضَةٌ لِمَجْمُوعاتِ تِلْكَ الْمَكْتَبَةِ ٱلَّتِي تُسايِرُ مَلَكاتِ الطَّالِبِ فِي مَراحِلِ طُفُولَتِهِ وَصِباهُ، مُتَدَرِّجَةً بِهِ في سِنِيِّ دِراسَتِهِ ٱلابْتِدائِيَّةِ وَٱلثَّانَوِيَّةِ. وَظَهَرَ كِتابٌ بِٱلإِنْكِلِيزيَّةِ للدُّكْتُورِ لبيب شحاته وَفِيهِ تَرْجَمَةٌ لِبَعْضِ آراء كِبارِ الشَّرْقِيِّينَ وَٱلْمُسْتَشرِقِينَ فِي هذِهِ ٱلْمَكْتَبَةِ وَأَثَرِها فِي تَرْبِيَةِ شَبابِ ٱلْجِيلِ وَرِجالِ ٱلْمُسْتَقْبَلِ. ثُمَّ ظَهَرَتْ رِسالَة لِلأَدِيبِ اللُّبْنانيِّ ٱلأُسْتاذِ أمين الغُرَيِّب عُنْوانُها: «ٱلنَّقْشُ فِي الْحَجَرِ»، وَقَدْ نَوَّهَتْ بِتِلكَ ٱلْمَكْتَبَةِ وَأَظهَرَتْ مَزِيدَ ٱلإِعْجابِ بِها وَمَوْفُورَ ٱلثِّقَةِ بِنَفْعِها.

وَلا يَسَعُ ناشِري هذِهِ القِصَصِ أَنْ يُثْبِتَ هُنا كُلَّ ما جَرَتْ بِهِ أَقْلامُ ٱلْعُظَماءِ وَٱلْوُزَراءِ وَأَعْيانِ ٱلتَّرْبِيَةِ وَٱلأَدَبِ فِي تَقْدِيرِ مَكْتَبَةِ ٱلأَطْفالِ وَٱلإِشادَةِ بِمؤَلِّفِها، وَلَكِنَّهُ يَكْتَفِي بِفِقَراتٍ قَصِيرَةٍ مِنْ آراءِ نُخْبَةٍ مِنْ هؤُلاءِ:

... وَإِنِّي أَعْتَقِدُ أَنَّ ٱلاسْتِفادَةَ بِها فِي كُلِّ بَلَدٍ عَرَبِيٍّ، وَكُلِّ قُطْرٍ إِسْلامِيٍّ، أَمْرٌ نافِعٌ جِدًّا، لِسُهُولَةِ أُسْلُوبِها، وَإِتْقانِ وَضْعِها، وَفَصاحَتِها الَّتِي يَسْتَفِيدُ ٱلتِّلْمِيذُ مِنْها - بِٱلتَّدَرُّجِ - ٱلشَّيْءَ ٱلْكَثِيرَ فِي ٱللُّغَةِ...[1].

... إِنَّ ٱلْجُهُودَ ٱلَّتِي تَبْذُلُها فِي تَعْوِيدِ ٱلنَّشْءِ صَحِيحَ ٱللُّغَةِ، جَدِيرَةٌ بِٱلإِعْجابِ وَٱلتَّقْدِيرِ...[2].

فَلْنَحْتَفِلْ أَوَّلاً بِالْكِيلانِي ٱلْمُرَبِّي، ٱلَّذِي عَرَفَ أَنَّ تَرْبِيَةَ ٱلنَّشْءِ - عَلَى أَساسٍ صَحِيحٍ مَتِينٍ وَخُلُقٍ قَوِيمٍ كَرِيمٍ - هِيَ ٱلْعامِلُ ٱلأَوَّلُ لإِنْهاضِ هذِهِ ٱلأُمَّةِ. فَعَكَفَ

---

(١) حضرة صاحب السمو الملكي الأمير: سيف الإسلام عبد الله، نجل جلالة ملك اليمن.

(٢) حضرة صاحب المقام الرفيع شريف صبري باشا.